الفصل الثانى

نماذج من التراث المعمارى الإسلامى

obeikandl.com

عمارة المدينة المنورة في عصر الرسول ﷺ

كانت بداية العمارة الإسلامية مع هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة، وهى موطن الاستقرار الذى باشر منه دعوته لنشر هذا الدين العظيم، وقد قام بتحديد الوظائف الأساسية للمكان الذى اختاره والتى لا يقوم الدين إلا بها، وهو ما يعنى إعادة صياغة المكان صياغة إسلامية، هذه الصياغة وضعت لنا عناصر المدينة الإسلامية، وهذه العناصر استقيت من سيرة الرسول ﷺ عند نزوله المدينة وسنوردها تباعا كما دلت عليها الروايات الصحيحة.

* **المسجد أول البناءات**

بعد دخول رسول الله ﷺ المدينة المنورة بركت ناقته عند موضع مسجده، وهو يومئذ يصلى فيه رجال من المسلمين، كان مربدا لسهل وسهيل غلامين يتيمين من الأنصار، فسام رسول الله ﷺ فيه فقالا: نهبه لك يا رسول الله ﷺ فأبى رسول الله ﷺ حتى ابتاعه منهما بعشرة دنانير، وكان فيه شجر غرقد. ونخل وقبور للمشركين، فأمر رسول الله ﷺ بالقبور فنبشت وبالنخيل والشجر فقطعت، وصفت فى قبلة المسجد، وجعل طوله مما يلى القبلة إلى مؤخرته مائة ذراع، ثم بُنى باللبن وجعل رسول الله يبنى معهم، وينقل اللبن والحجارة بنفسه ويقول:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وقال الحافظ الذهبى: هذه القبلة كانت فى شمال المسجد، لأنه عليه السلام صلى سبعة عشر شهرا إلى بيت المقدس، فلما حولت القبلة بقى حائط القبلة الأولى مكان أهل الصفة، وجعل له ثلاثة أبواب، باب فى مؤخرته، وباب يقال له باب الرحمة، والباب الذى يدخل منه رسول الله ﷺ، وجعل عمده الجذوع، وسعفه بالجريد.

ويستخلص من ذلك أن أول وظيفة أحياها رسول الله ﷺ فى المكان «وظيفة المسجد» الذى كان بمثابة مركز للصلاة والعبادة إضافة إلى كونه مركزا سياسيا واجتماعيا وحضاريا وملتقى علميا، هذه الوظائف التى كان يؤديها المسجد جعلت مكانته أكثر من كونه للعبادة لأن الأرض قد جعلت لرسول الله ﷺ مسجدا وطهورًا كما جاء فى الحديث.

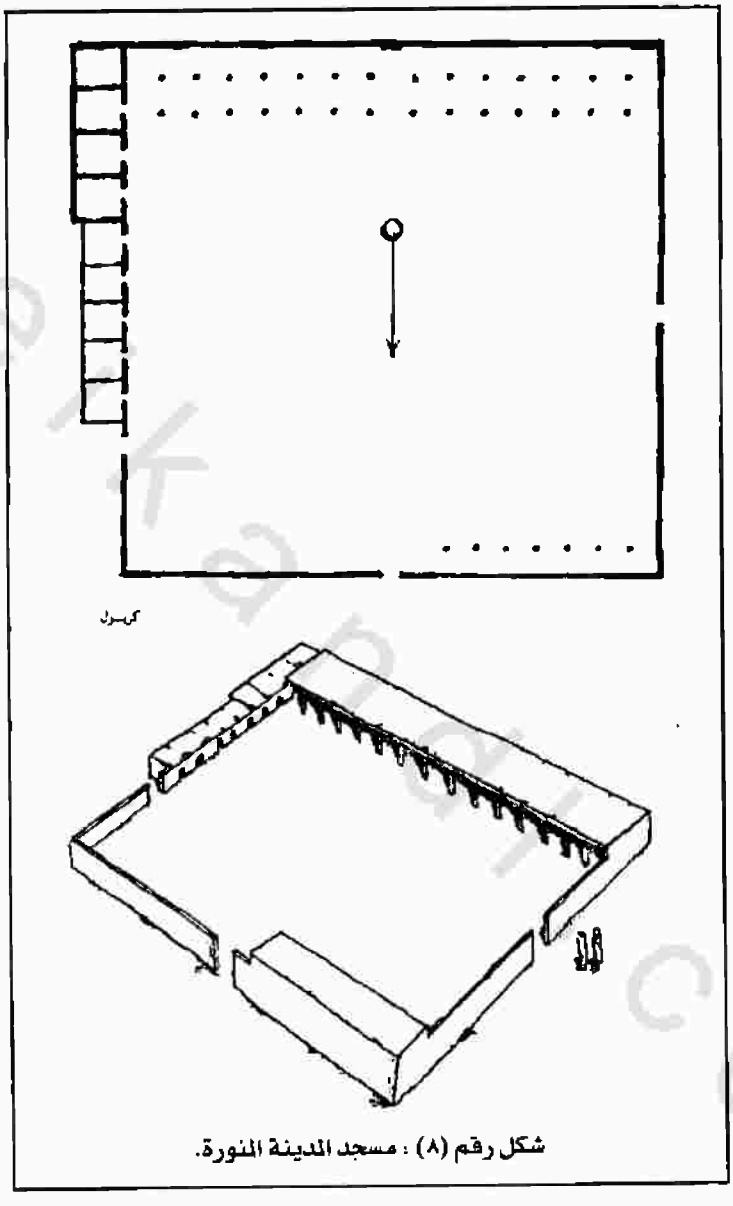

شكل رقم (٨) : مسجد المدينة المنورة.

ونستطيع أن نرى فى بناء مسجد المدينة دروسًا معمارية مستوحاة من هدى النبى ﷺ :

* **الدرس الأول:** وهو قاعدة هامة عند اختيار الأراضى التى تبنى عليها المساجد وكانت ذات ملكية خاصة فيجب أن تؤخذ موافقة أصحابها، وأن يتم تقدير ثمنها دون بخس لهذا الثمن فالله طيب لا يقبل إلا طيبا.

* **والدرس الثانى:** فى تجهيز الموقع وإعداد مواد البناء، فلقد كان بالأرض عند شرائها نخيل وقبور فأمر بالنخيل أن تقطع وبالقبور أن تنقل. وأن يغيبوا العظام الموجودة بها، وفى نفس الوقت أمر البنائين أن يضربوا اللبن وهو مادة البناء الذى سوف يستخدم فى بناء حوائط المسجد، وبذلك نجده لم ينتظر حتى يتم إعداد الأرض ثم يأمر بتجهيز اللبن، والذى يحتاج لبعض الوقت ليجف ويصبح صالحا للبناء وكل ذلك من أجل كسب الوقت، وهذا هو نفس الأسلوب المتبع فى عصرنا الحديث عند وضع الجداول الزمنية لتنفيذ عناصر المشاريع المختلفة حيث يمكن عمل مرحلتين أو أكثر فى وقت واحد إن أمكن ذلك أو أن يشتركا فى جزء من الوقت مما يوفر فى المدة الإجمالية لتنفيذ المشروع.

* **والدرس الثالث:** يعطيه لنا رسولنا الكريم وصحابته وهم يشاركون فى بناء المسجد باستخدام المواد المتوفرة فى بيئة المدينة المنورة فاللبن للحوائط وجذوع النخل أعمدة وجريد النخل فى تسقيف المسجد، مما يعطى درسا هاما فى أهمية استعمال مواد البيئة والمشاركة الشعبية فى بناء المشروعات فى البيئات الفقيرة كما فعل الصحابة ورسولنا الكريم.

أعطى الشيخ عبد الحى الكتانى وصفا لطريقة بناء اللبن فى حوائط المسجد النبوى حيث بناه الرسول ﷺ ثلاث مرات، الأولى بالسميط وهو لبنة أمام لبنة، والثانية بالصفرة وهى لبنة ونصف فى عرض الحائط والثالثة بالأنثى والذكر وهى لبنتان تعرض عليهما لبنتان وبذلك نرى اختلاف أسلوب البناء لما كثر عدد المسلمين ونمت زيادة مساحة المسجد، مما يدل على أهمية تطويع أسلوب البناء ليخدم وظيفة المسجد أو أى مبنى فكلما كثر عدد المستعملين زاد الاهتمام بمتانة البناء.

* **والدرس الرابع:** يعطيه لنا رسول الله ﷺ حينما أقر فعل تميم الدارى حينما أسرج المسجد النبوى بالقناديل وبذلك فإن رسول الله يشجع أى عنصر معمارى جديد يمكن أن يضاف إلى المسجد ويسهل من أداء وظيفته والتيسير على مستخدميه من المصلين.

هذه الدروس نستطيع أن نجملها فى جملة واحدة وهى: أن عمارة المسجد النبوى تعبر عن البساطة والتلقائية التى يدعو إليها جهابذة العمارة فى عصرنا الحاضر، وهذه الدروس

والمفاهيم– وغيرها كثير – المستوحاة من عمارة المسجد النبوى، توضح أن رسولنا الكريم عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم هو المعلم الأول للمسلمين فى جميع المجالات، وهو الذى يعطيهم النموذج والأساس ويترك لهم الابتكار والإبداع حسب الزمان والمكان، وقد بنى الرسول ﷺ حجرات زوجاته ملاصقة لجدران المسجد حيث أرسى بذلك قاعدة هامة وهى ارتباط د ر الحكم بالمسجد وهكذا فعل حكام المسلمين من بعده مثلما فعل «سعد بن أبى وقاص» فى الكوفة وعمرو ابن العاص فى الفسطاط.

كما راعى الرسول ﷺ أن يوزع المساجد على خطط المدينة وبلغ عددها تسعة فى خطط المهاجرين وكانت مخصصة للصلوات الخمس فقط، وقد حدد الرسول بذلك وجود نوعين من المساجد بالمدن وهى المساجد الجامعة وتقام بها صلاة الجمعة إلى جانب الصلوات الخمس، ومساجد الخطط وتقام فيها الصلوات الخمس وهى مساجد صغيرة.

– ثم باشر رسول الله ﷺ تحديد وظائف المدينة من الداخل فبنى مساكنه إلى جوار المسجد قال الكتانى فى الترتيب «ثم بنى ﷺ المسجد باللبن وسعفه بجذوع النخل والجريد وكان محيطه مبنيا باللبن وقواطعه الداخلة من الجريد المكسو بالطين وجعل له أبوابا ونوافذ متقنة الهواء داعية إلى السهولة فى الدخول والخروج وخفة الحركة مع وفرة الزمن والسرعة إلى المقصد».

وعن هدى رسول الله ﷺ فى تدبيره لأمر المسكن يقول ابن القيم الجوزية «لما علم ﷺ أنه على ظهر سيد، وأن الدنيا مرحلة مسافر ينزل فيها مدة عمره، ثم ينتقل منها إلى الآخرة، لم يكن من هدية وهدى أصحابه، ومن تبعه الاعتناء بالمساكن وتشييدها وتعليتها وزخرفتها وتوسيعها، بل كانت من أحسن منازل المسافر تقى الحر والبرد، وتستر عن العيون، وتمنع من ولوج الدواب، ولا يخاف سقوطها لفرط ثقلها، ولا تعشش فيها الهوام لسعتها ولا تعتور عليها الأهوية والرياح المؤذية لارتفاعها، وليست تحت الأرض فتؤذى ساكنها، ولا فى غاية الارتفاع عليها، بل وسط، وتلك أعدل المساكن وأقلها حرا وبردًا، ولا تضيق عن ساكنها فينحصر، ولا تفضل عنه بغير منفعة ولا فائدة، فتأوى الهوام فى خلوها، ولم يكن فيها كُنُفٌ تؤذى ساكنها برائحتها، بل رائحتها من أطيب الروائح لأنه كان يحب الطيب، ولم يكن فى الدار كنيف تظهر رائحته، ولا ريب أن هذه من أعدل المساكن وأنفعها وأوفقها للبدن وحفظ الصحة.

وفى هذا العرض الموجز عرض لنا الإمام ابن القيم الجوزية الشروط الواجب توافرها فى المنزل الإسلامى وهى البساطة - التلقائية - الخصوصية - التوافق مع البيئة، وهى شروط لا تتوافر فى كثير من العمارات والناطحات السكنية التى انتشرت فى مدن العالم الإسلامى، حيث درج المسلمون فى العصر الحديث على نقل كل ما هو قادم من الغرب دون وعى.

ولم تكن هذه الشروط نظرية، بل دخلت حيز التطبيق فنرى المنازل فى صدر الإسلام تفى بالضرورات ولا تمتد إلى الكماليات مما لا حاجة له. أخرج البخارى فى صحيحه، أن عبد الله ابن عمر رضى الله عنه قال: «لقد رأيتنى مع رسول الله ﷺ وقد بنيت بيتا بيدى يكننى من المطر ويظلنى من الشمس وما أعاننى عليه أحد من خلق الله»، وكان للأصول السكنية والقبلية شأن كبير فى توزيع السكان فى أحياء المدينة بحيث تقطن كل أسرة أو قبيلة حيًّا من الأحياء. وقد كانت مسئولية توزيع الخطط فى يد الرسول باعتباره الحاكم، وكان منهجه فى توزيع الخطط يهدف إلى تجميع كل قبيلة فى خطة خاصة بها، وتركت حرية تقسيم الخطط للقبيلة وفقا لظروفها وإمكاناتها فى الإنشاء والتعمير، ومدى الحاجة إلى ذلك، فكأنما روعيت النظرة المستقبلية لامتداد العمران كما حدث فى إقطاع الزبير. وعلى هذا الأساس سار إقطاع الخطط والمنازل فى المدن الإسلامية الناشئة، ومن أمثلة ذلك ما حدث فى البصرة سنة ١٤هـ / ٦٣٥م، والكوفة سنة ١٧هـ / ٦٣٨م، والفسطاط سنة ٢١هـ / ٦٤١م، والقيروان سنة ٤٥هـ / ٦٦٥م.

* السوق

كما حدد ﷺ موضع السوق لعلمه أن الاستقرار لا يقوم إلا به فهو مصدر التكسب والتجارة والحرف، روى الطبرانى من طريق الحسن بن على بن أبى الحسن أن رجلا جاء إلى النبى ﷺ فقال «إنى نظرت موضعا للسوق أفلا تنظرون إليه؟ قال بلى: فقام معه حتى جاء موضع السوق فلما رآه أعجبه وركض برجله، وقال: نعم سوقكم هذا فلا ينقصن ولا يضْرِبَنَّ عليكم خراج ورواه ابن ماجه بلفظ «ذهب رسول الله ﷺ إلى سوق النبيط فنظر إليه فقال ليس هذا الكم بسوق.. ثم رجع إلى هذا السوق فطاف فيه ثم قال هذا أسوقكم فلا ينتقصن ولا يضر بن عليه خراج».

-- كما أقر الإسلام الأسواق التى تبايع الناس بها فى الجاهلية فعن ابن عباس قال: «كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقا فى الجاهلية فلما كان الإسلام تأثموا من التجارة فيها فأنزل الله تعالى: ﴿ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم ﴾.

مصلى العيد

كان لسنة رسول الله ﷺ أثرها الواضح فى اشتمال المدينة على ساحة فضاء تقام عليها صلاة العيد فى الخلاء عرفت «بمصلى العيد» يخرج إليها أهل المدينة لصلاة العيد.

دور الضيافة

وخصصت بالمدينة المنورة على عهد رسول الله ﷺ دور للضيافة واستقبال الوفود كان من أهمها دار عبد الرحمن بن عوف وكانت تسمى «دار الضيفان» أو دار الأضياف، ودار رملة

بنت الحارث الأنصارية التى نزلتها وفود غسان وبنى ثعلبة وعبد القيس، وبنى فزارة وعذرة وبنى حنيفة.

* تحصين المدينة

حرص رسول الله ﷺ على تأمين المدينة من أضعف الجهات وهى الجهة الشمالية وذلك قبل قدوم الأحزاب للمدينة ولو بلغت هذه الأحزاب المحزبة والجنود المجندة أسوار المدينة بغتة لكانت أعظم خطر على كيان المسلمين حتى نقلت استخبارات المدينة إلى قيادتها فيها خبر هذا الزحف الخطير، وبعد أن استشار رسول الله أصحابه أخذ برأى سلمان الفارسى رضى الله عنه حيث قال: «يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا – وكانت خطة حكيمة لم تعرفها العرب قبل ذلك. وهذا درس يلقنه ﷺ وهو أن نأخذ من الأمم التى سبقتنا فى أطوار العلم ما يفيدنا منها فقط ويرفع من مقدرة المسلمين على مجابهة أعدائهم.

وعن أنس رضى الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون فى غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من نصب وجوع قال.

اللهم إن العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

وقسم الصحابة إلى مجموعات يتكون كل منها من عشرة أشخاص كلفوا بحفر أربعين ذراعا، ولما كان طول الخندق حوالى ١٢٠٠ ذراع فإنه يكون قد اشترك فى حفره ثلاثة آلاف مسلم، وخطط الرسول الخندق من حصن الشيخين قرب خطة بنى حارثة حتى بلغ المذاذ وهو حصن بنى خزام من بنى سلمة غربى مسجد الفتح.

وحفر هذا الخندق عمل معمارى حربى ضخم أنجز فى فترة وجيزة بلغت فى أقصى تقدير أربعة وعشرين يوما، وكان لحسن تنظيم العمل ومخافة هجوم الأعداء بسرعة أثره فى ذلك، واستكمالا لأعمال التحصين حصنت جدران المنازل التى قرب الخندق والتى بينها وبين العدو مسافة قصيرة.

واتخذ الرسول المعسكرات لجنده خارج المدينة على مسافة منها، ومن أمثلة ذلك معسكر الجرف الذى يبعد عن المدينة ثلاثة أميال فى اتجاه الشمال وهو معسكر أسامة عندما أرسله إلى الشام وهو الذى عسكر به الجند عند ذهابهم إلى مؤتة.

تلك كانت لمحة عامة عن العمارة الإسلامية بالمدينة المنورة على عهد رسول الله ﷺ والتى اقتدى بها المسلمون فى تخطيط مدنهم وعمائرهم المختلفة الدينية والمدنية والحربية كما حدث بعد ذلك فى البصرة والكوفة والقيروان والفسطاط.. الخ.

جامع عمرو بن العاص

هو أول مسجد جامع أقيم فى مصر والرابع فى الدولة الإسلامية لذا يسمى بالجامع العتيق، أنشأه بالفسطاط الصحابى عمرو بن العاص عام (٢١هـ / ٦٤١م). وكان هذا المسجد أول إنشائه مركزا للحكم وأول مدرسة للدعوة الإسلامية. وكان بيت عمرو بن العاص يقع شرقى الجامع وخارجه مما يؤكد صلة الجامع بالحكم. وقد قام هذا الجامع بدور علمى كبير خلال القرون الخمسة الأولى لإنشائه. والمسقط الأصلى للجامع لا علاقة له بالمسقط الحالى، حيث أجريت زيادات وإضافات متعددة خلال العصور الإسلامية المختلفة، والمبانى الحالية مقامة خلال النصف الثانى من القرن الحالى.

ومن خلال الدراسات التاريخية (ولاسيما وصف ابن دقماق للجامع فى القرن الثامن الهجرى) يمكننا القول بأن الشكل العام للجامع عند أول إنشائه كان عبارة عن ظلة ذات مسقط مستطيل مسطحه حوالى ٢٥ × ١٥ مترا لها سور، ويحيط بها الطريق من جهاتها الأربع ولم يكن له صحن، كما لم يكن به محراب أو مئذنة ولم يشتمل مسقطه على مطهرة. وكان بالمسجد ستة أبواب فى حوائطا، ما عدا حائط القبلة فلم تكن به أبواب، كما كان به منبر، ولم تكن به معالجة معمارية خاصة للمداخل. ومما يثير الدهشة صغر مسطح المسجد الذى لا يسع إلا عددا محدودا من المصلين (حوالى ٥٠٠ شخص). أقيمت الحوائط الخارجية بالطوب اللبن عارية من الزخارف أو البياض وكانت الظلة عبارة عن أعمدة من جذوع النخيل تحمل سقفا من السعف وعليه لياسة من الطين وكان الارتفاع الداخلى على الأرجح حوالى ثلاثة أمتار (٣٣) مثل المسجد النبوى.

وفى العصر الأموى زيد فى مسطح الجامع عام (٥٣هـ / ٦٧٢م) وعمل له صحنٌ، ولعل ذلك كان بسبب ازدياد عدد المسلمين وتعدد وظائف الجامع. فبالإضافة لدوره الدينى قام بوظائف مدنية متعددة معبرا بذلك عن الوظيفة الحقيقية للجامع فى المفهوم الإسلامى. حيث كان دارا للقضاء ومكانا للدرس. وإن كان الجامع فى ذلك الوقت قد زخرفت أسقفه وعملت له أربع صوامع على يد مسلمة بن مخلد، وكان المؤذنون يصعدون إليها بدرج من خارج الجامع.

وفى عام ٩٣هـ/ ٧١٠م) فى عصر الوليد بن عبد الملك وعلى يد الوالى قره بن شريك، هدم الجامع وعملت به أربع ظلات يتوسطها فناء كبير، وأكبرها ظلة القبلة وكان يتسع لحوالى خمسة آلاف مصل وعملت مطهرة فى فنائه كما عمل به (عام ٩٤هـ / ٧١٢م) محراب مجوف

ووضع به منبر خشبى، وذهبت تيجان بعض أعمدته. واستمر الجامع مرتبطا ارتباطًا وثيقا بالنسيج العمرانى تحيط به الأسواق من جهاته الأربع كذلك نظمت نوافذ فى الأجزاء العليا من الحوائط الخارجية للاستفادة منها فى إنارة الجامع بعد الزيادات.

– وفى العصر العباسى زيد بالجامع عدة مرات أكبرها وأهمها زيادة الوالى عبد الله بن طاهر (٢١٢هـ / ٨٢٧م) حيث أصبح مسطحه مربع الشكل تقريبا وبلغ مسطحة (١١٢,٢٠ × ١٢٠م). وفى العصر العبيدى أضاف الحاكم بأمر الله عام (٤٠٦هـ / ١٠١٥م) رواقين بصحن الجامع. ولم تخرج الأعمال التى أجريت به بعد ذلك عن إصلاحه وزخرفته وتأثيثه إلى أن تغيرت معالمه تماما عقب عمارة مراد بك عام (١٢١٢هـ / ١٧٩٢م) حيث لم يراع فيها المسقط الذى كان عليه الجامع، وتغيرت أبعاد الظلات والصحن. فأصبحت ظلة القبلة تشتمل على ستة صفوف من العقود بدلا من سبعة. وأصبحت عقود هذه البائكات عمودية على جدار القبلة بعد أن كانت موازية لها مما أدى لسد أرجل العقود لبعض الشبابيك.

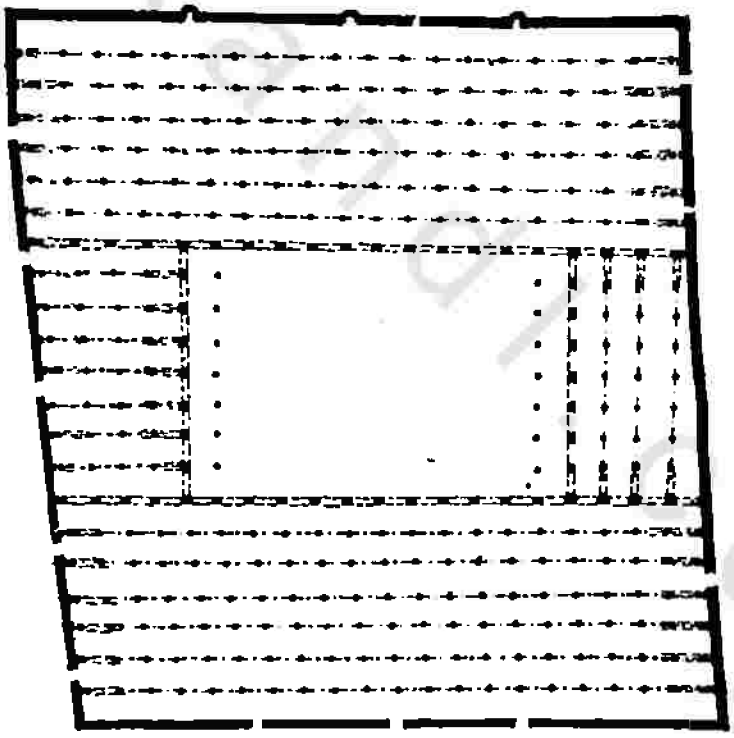

شكل رقم (٩): مسجد عمرو بن العاص

يقع المسجد حاليا بالقرب من آثار مدينة الفسطاط بحى مصر القديمة بالقاهرة، ويتكون من صحن واسع مكشوف تحيط به أربع ظلل، ويتوسط الصحن قبة مقامة على ثمانية أعمدة رخامية مستديرة. وتتكون ظلة القبلة من إحدى وعشرين بائكة على جدار القبلة، وتتكون كل بائكة من ستة عقود مدببة - حذوة الفرس - مرتكزة على أعمدة رخامية مستديرة وبصدر ظلة القبلة محراب مجوف مزخرف، وبصدر ظلة القبلة محراب آخر غير مزخرف، وعن يمين هذا المحراب منبر من الخشب، وبجدار القبلة لوحتان من عصر مراد بك إحداهما مؤرخة (١٢١٢هـ/ ١٧٩٢م). كما تقع دكة المبلغ الخشبية بين البائكتين التاسعة والعاشرة ولها سلم. وقد أقيم أمام ظلة القبلة بائكة جديدة من اثنى عشر عقدا ترتكز على ثلاثة عشر عمودا مستديرا من الرخام موازية لجدار القبلة. وتتكون كل من الظلتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية من تسع بائكات تحصر بينها سبعة أروقة موازية لجدار القبلة. ماعدا البائكات التى أمام الأبواب الثلاثة فعقودها عمودية على جدار القبلة. وترتكز كل العقود من ناحية الصحن على عمودين، كما تشرف واجهات ظلات القبلة والمقابلة لها على الصحن من خلال بائكة من اثنى عشر عقدا، وواجهات ظلات الجانبين من خلال بائكة من ثمانية عقود وتوجد فى كوشات العقود صور مزخرفة.

وقد لوحظ تعدد مواد الإنشاء المستخدمة بالمسجد نتيجة لتجديده فى عصور مختلفة والمادة الأساسية فى بناء حوائطه هى الحجر حيث كان هو مادة البناء المتوفرة والسقف بظلة القبلة محمول على أعمدة رخامية مستطيلة مختلفة الأطوال. أما باقى الظلات فمجدده حديثا بالخرسانة المسلحة ومكسوه بالموزايكو. وأسقف جميع الظلات حديثة من الخرسانة المسلحة ماعدا ظلة القبلة فهى من الخشب المحمول على براطيم وهى مجددة وخالية من الزخارف.

وبتحليل مسقط الجامع وقت إنشائه نجده شكلا ومضمونا مرتبطا بالقيم الإسلامية فالهدف توفير مسطح مغطى لحماية المصلين من العوامل الجوية، أبوابه مفتوحة ومتعددة فى دعوة للمسلمين للدخول. ولم يشتمل المبنى فى مسقطة الأصلى إلا على منبر، ومواد الإنشاء مستمدة من البيئة معبرة عنها بصراحة والجدران عارية من الزخارف. وكانت صورة المسجد النبوى هى الإطار الذى حدد نمط المسقط والشكل العام، حيث لم يظهر أى تأثر بالعمارة المصرية أو المسيحية الشرقية التى كانت شائعة فى مصر ذلك الوقت من أبراج ومذابح ورسومات وزخارف. بينما فى العصور التى قلت ذلك (الأموى، العباسى، العبيدى، المملوكى، العثمانى) أحدث بالجامع عناصر لم تكن معروفة من قبل بالمسجد النبوى كالمحراب المجوف والمقصورة والمآذن والزخارف وأعمال الفسيفساء كما ذهبت تيجان الأعمدة. ويمكن من خلال المصادر التاريخية

تصور شكل الفراغ الداخلى عقب الزيادات وما به من إسراف وتبذير بحيث لم يكن بالمكان الهادئ المعبر عن روح الإسلام ولكنه أصبح يعبر عن بيئة مستوحاة من الخارج[1].

*** جامعة عمرو بن العاص**

كان جامع عمرو بن العاص يعد جامعة علمية ومدرسة كبرى، يتلقى فيها الطلاب العلوم الدينية من فقه وتفسير وحديث، والعلوم اللغوية من نحو وبلاغة وأدب وتاريخ إسلامى وغير ذلك من العلوم المفيدة.

وكان مجلسا القضاء والحكم بين الناس، وكان به مجلسا لقاضى القضاة يجلس فيه يومين فى الأسبوع ليحكم بين الناس.

وكان بالمسجد زوايا لتدريس العلم، وقف الخيرون عليها أموالا كثيرة، فكثرت المناظرات العلمية، ومطارحة الشعر. وظهر التنافس بين العلماء والتلاميذ، وخاصة بين المذاهب الفقهية وقد سجل المقريزى بعض جوانب الحياة العلمية بالمسجد فقال:

كانت هناك زاوية الشافعى درس بها الإمام رضى الله عنه فعرفت به، وعليها أرض بناحية «سندبيس» وقفها العزيز بالله عثمان بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب وقد تولى التدريس بها أعيان الفقهاء وجلة العلماء..

والزاوية المجدية - بصدر المسجد بين المحراب الكبير (محراب الجهة) والمحراب الوسطانى. رتبها مجد الدين بن أبى الأشبال الحارث بن مهذب الدين أبى المحاسن وزير الأشراف، وقرر للتدريس بها قريبه قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب. وعمل على هذه الزاوية عدة أوقاف بمصر والقاهرة. ويعد التدريس فيها من المناصب الجليلة..

والزاوية الصاحبية، رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين محمد بن بهاء الدين، وجعل لها مدرسين: أحدهما مالكى، والآخر شافعى، وجعل عليها وقفا بظاهر القاهرة. الخ[2].

لقد كان جامع عمرو ذا حركة علمية نشطة قل أن تتواجد فى أى مسجد آخر فى العالم الإسلامى فى العصور المبكرة، ولكن دوام الحال من المحال فقد هجره العلماء إلى مدارس القاهرة التى ازدهرت فى العصرين المملوكى والعثمانى.

---

(١) أسس التصميم المعمارى والتخطيط الحضرى فى العصور الإسلامية المختلفة للعاصمة القاهرة، ص ٥: ١٣، إصدار منظمة العواصم والمدن الإسلامية، ١٩٩٠م.

وانظر أيضا، حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص ٢٣: ص ٣١. القاهرة ١٩٤٦م.

(٢) إبراهيم الجمل، جامع عمرو بن العاص، ص ٢٢، ٢٣. كتاب الشعب (٧٥) مساجد ومعاهد، ١٩٦٠م. القاهرة.

صورة رقم(٢٠) : جامع عمرو بن العاص.

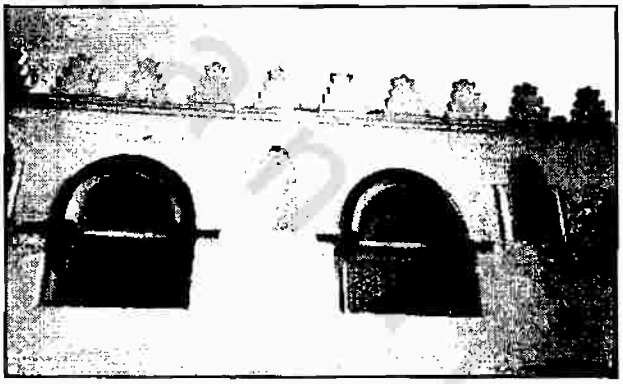

صورة رقم (٢١) : إحدى نوافذ مسجد عمرو بن العاص.

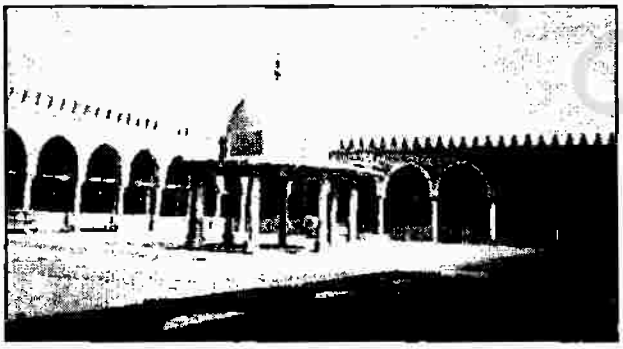

صورة رقم (٢٢) : صحن مسجد عمرو بن العاص.

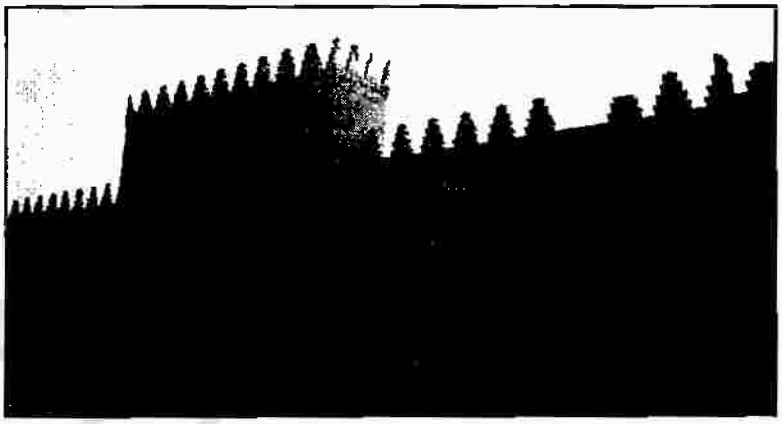

صورة رقم (٢٣): مسجد عمرو بن العاص- المدخل.

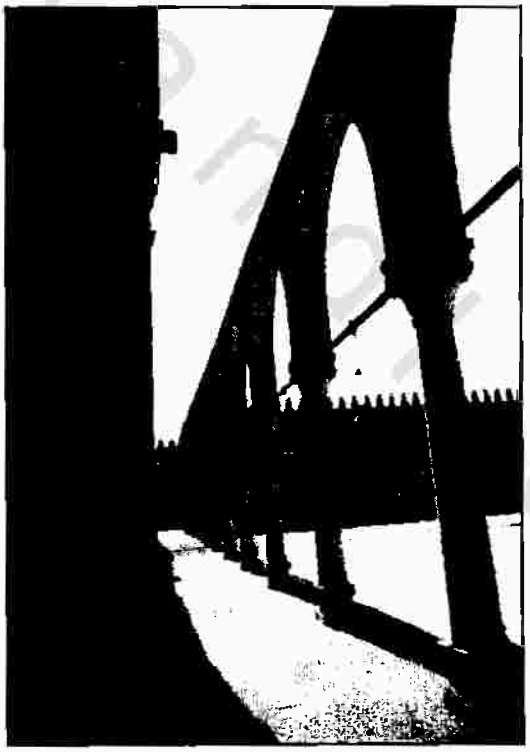

صورة رقم (٢٤): مسجد عمرو بن العاص.

جامع القيروان

تسميتها:

قال الأزهرى: القيروان معربٌ وهو بالفارسية كاروان، وقد تكلمت به العرب قديما، قال امرؤ القيس:

وغـــارة ذات قِيْـروان كأن أســرابها الرعّال[1]

تأسيسها:

عزل معاوية بن أبى سفيان معاوية بن حُديَج الكندى عن إفريقية واقتصر به على ولاية مصر. وولى إفريقية عقبة بن نافع بن عبد قيس بن لقيط بن عامر بن أُمية وكان مولده فى أيام النبى ﷺ، وكان مقيما بنواحى برقة وزويلة منذ ولاية عمرو بن العاص له فجمع إليه من أسلم من البربر وضمهم إلى الجيش الوارد من قبل معاوية، وكان جيش معاوية عشرة آلاف وسار إلى إفريقية ونازل مدنها فافتتحها عنوة ووضع السيف فى أهلها وأسلم على يده خلق من البربر وفشا فيها دين الله حتى اتصل ببلاد السودان[2].

نظر عقبة فى أحوال إفريقية نظر الحاذق البصير، فرأى أنه لن يستقيم لها أمر إلا باستقرار المسلمين فيها بصفة نهائية، لا كما فعل من سبقه من القادة. يقول عقبة فى هذا: إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجابه منهم لدين الله إلى الكفر، وأرى لكم معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكرا، وتكون عز الإسلام إلى آخر الدهر، فبنى لهم مدينة القيروان[3].

وقد رأى عقبة أن من أسباب تراجع المسلمين عن إفريقية هو طول خط المواصلات بينهم وبين أقرب مرتكز لهم وهو «الفسطاط»، فاستقر رأيه على أن خير وسيلة للاستقرار بالمغرب إنما تكمن فى الاحتفاظ بجيش دائم، وأن ذلك يستدعى إنشاء مدينة جديدة تكون مقر عسكر

---

(١) ياقوت الحموى، معجم البلدان ص ٤٢٠ المجلد الرابع طبعة دار صادر ودار بيروت – بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(٢) المرجع السابق ص ٤٢٠.

(٣) خليفة ابن الخياط، تاريخ خليفة بن الخياط، تحقيق دكتور أكرم ضياء العمرى ص ٢١٠ دار طيبة ١٩٨٥م، الرياض ابن عذارى المراكشى البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ص ١٩ جـ ١، تحقيق ومراجعة ج.س.كولان، إليفى بروفنسال – المكتبة الأندلسية – دار الثقافة – بيروت – لبنان.

المسلمين وموطن أهلهم، فاختار لذلك موقعاً له ميزات عديدة من حيث الحرب و لاقتصاد والمواصلات فأنشأ القيروان في رقعة تكفي لتموين الحامية ومن معها، بعيدة عن الساحل بحيث لا ينالها الأسطول الرومي، وفي نفس الوقت تكون مواجهة لجبل أوراس الذى كثيرا ما قاوم سكانه الفاتحين من قبل[1].

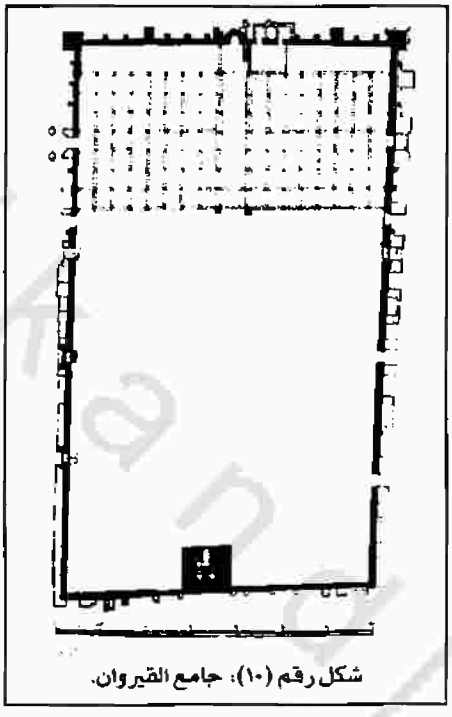

شكل رقم (١٠): جامع القيروان.

واستصوب صحابة عقبة بن نافع رأيه، فجاءوا إلى موضع القيروان وهى فى طرف البر وهى أجمة عظيمة وغيضة لا يشقها الحيات من تشابك أشجارها، وقد أمر عقبة بن نافع صحابه بالبناء فقالوا: هذه غياض كثيرة السباع والهوام فنخاف على أنفسنا هنا، وكان عقبة مستجاب الدعوة فجمع من كان فى عسكره من الصحابة وكانوا ثمانية عشر ونادى: أيتها الحشرات والسباع نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارحلوا عنا فإنا نازلون فمن وجدناه بعدُ قتلناه، فنظر الناس يومئذ إلى أمر هائل، كان السبع يحمل أشباله والذئب يحمل أجراءه والحية تحمل أولادها وهم خارجون أسرابا أسرابا، فحمل ذلك كثيرا من البربر على الإسلام[2].

(١) الدكتور عبد العزيز محمد الفيلم، رسالة المسجد فى الإسلام ص ٢٧١ الرياض – ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م

(٢) ياقوت الحموى، المرجع السابق ص ٤٢١.

شرع عقبة بن نافع فى بناء القيروان فى سنة ٥٠ للهجرة، وابتدأ بتخطيط دار الإمارة، ثم عمد إلى موضع المسجد الأعظم فاختطه، ولكنه لم يحدث فيه بناء.

ويذكر ابن عذارى المراكشى أنه كان يصلى فى موضع هذا الجامع قبل أن يقوم ببنائه «فاختلف الناس عليه فى القبلة، وقالوا أن أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد، فاجهد نفسك فى تقويمها. فأقاموا أياما ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس. فلما رأى أمرهم قد اختلف، بات مغموما، فدعا الله — عز وجل — أن يفرج عنه. فأتاه آت فى منامه، فقال له: إذا أصبحت فخذ هذا اللواء فى يدك، واجعله على عنقك، فإنك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك. فانظر الموضع الذى ينقطع عنك فيه التكبير، فهو قبلتك ومحرابك، وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر وهذا المسجد وهذه المدينة، وسوف يعز الله بها دينه، ويذل بها من كفر به. فاستيقظ من منامه، وهو جزع، فتوضأ للصلاة، وأخذ يصلى وهو فى المسجد ومعه أشراف الناس. فلما انفجر الصبح، وصلى ركعتى الصبح بالمسلمين، وإذا بالتكبير بين يديه، فقال لمن حوله: أتسمعون ما أسمع؟ فقالوا: لا فعلم أن الأمر من عند الله، فأخذ اللواء فوضعه على عنقه، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب فانقطع التكبير. فركز لواءه وقال: هذا محرابكم. فاقتدى به سائر مساجد المدينة»[1].

ومنذ ذلك العهد أصبحت قبلة جامع القيروان موضع إجلال الناس وتعظيمهم، فلم يتعرض لها أحد الأمراء بسوء فى الزيادات المتتالية التى أجريت بالجامع عامة وببيت الصلاة خاصة، ولم يتغير موضع القبلة حتى يومنا هذا لشرف انتمائها إلى التابعى عقبة بن نافع الذى أورث اسمه الجامع، فصار يعرف بجامع سيدى عقبة.

لم يكن هذا المسجد أول الأمر إلا مساحة مسورة بسور سعيك من اللبن على هيئة حصن، وليست لدينا فكرة عن بيت صلاته[2]، فهو يماثل المساجد الأولى فقد كان بسيط البناء، صغير المساحة، ويغلب الظن أن أسقفه كانت تقوم مباشرة على الأعمدة دون أن تحملها عقود.

وما لبثت المدينة أن عمرت بعد تخطيط الجامع بالدور ومختلف الأبنية والمساجد، وشد الناس إليها الرحال، وعظم قدرها، وتحقق الرجاء من بنائها وأصبحت بحق قاعدة للمسلمين فى بلاد المغرب. كانت القيروان فى وسط الصحراء ولم يمنعها انعزالها هذا من أن تنمو وتكبر، وإذا كان عقبة بن نافع قد عزل عنها فترة من الزمن إلا أنها استعادت عظمتها بعودته عام

---

(١) ابن عذارى، المرجع السابق ص ٢٠.

د. السيد عبد العزيز سالم، المسجد الجامع بالقيروان ص ١٦٩. مساجد ومعاهد «كتاب الشعب» الجزء الثانى ١٩٦٠م.

(٢) د. حسين مؤنس، المساجد ص ٦٧ سلسلة عالم المعرفة (٣٧) الكويت ربيع الأول ١٤٠١هـ. يناير ١٩٧٧م.

٦١هـ وظلت ما يقرب من أربعمائة عام على رأس مدن أفريقية والمغرب، وكان لها سور له أربعة عشر بابا، وكانت سوقها متصلة بالمسجد من جهة القبلة وممتدة إلى باب يعرف باسم باب الربيع وذكر البكرى أنه كان لهذه السوق سطح متصلة به جميع المتاجر والصناعات وأن هذا السطح قد تعرض لبعض التهدم، وأمر هشام بن عبد الملك بترميمه عام ١٠٥هـ.

– تختلف القيروان عن المدن العربية السابقة عليها فى التأسيس، فى أن كل قبيلة نزلت بها لم تكن تختص بمكان معين من المدينة ربما لأن فتحها جاء متأخرا. وربما لعدم حرص القبائل التى اشتركت فى فتحها على أن تظل بمعزل عن القبائل الأخرى فى سكنها كما حدث فى المدن السابقة[1].

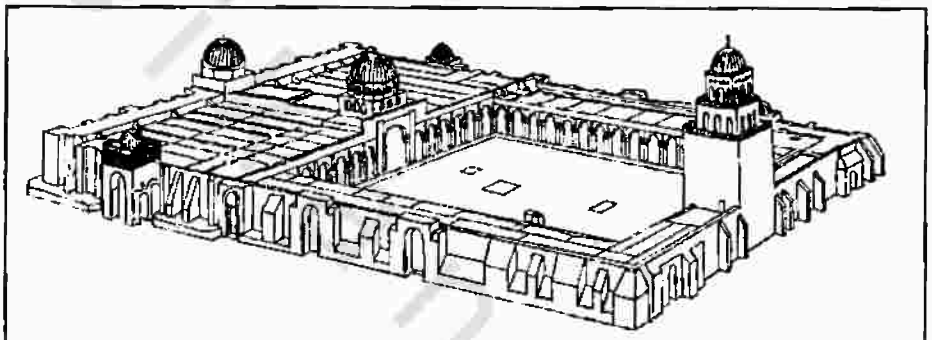

شكل رقم (١١): جامع القيروان.

عناية الحكام بجامع القيروان:

– لم يكد يمضى على بناء جامع القيروان عشرون عاما حتى هدمه حسان بن النعمان الغسانى، ما عدا المحراب. شيد حسان بن النعمان مسجدا جديدا فى موضع الجامع القديم فيما بين عامى ٧٨ – ٨٣ للهجرة (٦٩٣ – ٦٩٧م) احتفظ فيه بمحراب عقبة. وتم بناء مسجد حسان من الجهة الشمالية المقابلة للقبلة تجنبا لتغيير جدار المحراب.

ذكر الدكتور أحمد فكرى فى كتابه عن جامع القيروان أن حسان قد زاد فى عدد أروقة الجامع، وأن بيت الصلاة الجديد كان يشتمل على أربعة أساكيب (أى أروقة عرضية)، ولم يكن للمسجد آنذاك مجنبات تطل على الصحن وتدور حوله.

وفى عام ١٠٥ للهجرة (٧٢٤م) ضاق الجامع بالمصلين، فأمر الخليفة هشام بن عبد الملك عامله على القيروان وقتئذ بشر بن صفوان (١٠٣ – ١٠٩هـ)، بزيادة المسجد فاشترى بشر أرضا

(١) دارة الملك عبد العزيز، العلاقة بين التراث الحضارى ونمو المدينة العربية ص ٤٤ من كتاب المدينة العربية خصائصها وتراثها الحضارى، إصدار معهد إنماء المدن – الرياض – ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

محيطة بالمسجد من شماله، وضمها إليه، وبنى فى الصحن ماجلا (صهريجا للمياه)، وأضاف إلى بيت الصلاة ثلاثة أروقة أخرى، مد بها طول بلاطاته، ثم بنى بشر مئذنة للمسجد فى منتصف جداره الشمالى داخل الصحن، على بئر كانت تعرف ببئر الجنان، ونصب أساسها على الماء.

ويذكر ابن عذارى أن يزيد بن حاتم جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان عام ١٥٧ للهجرة (٧٧٤م) ولكننا نعتقد أن أعمال يزيد لا تعدو إصلاحه، وتجديد بعض زخارفه.

وظل المسجد على حالته بعد زيادة بشر بن صفوان.. إلى أن تولى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب الإمارة بأفريقية عام ٢٢١ للهجرة (٨٣٦م)، فبدأ يهدم أجزاء كثيرة من المسجد دون أن يغير كثيرا من نظامه، أو يبدل من حدوده.

ويذكر البكرى أن زيادة الله أراد هدم المحراب، فقيل له: أن من تقدمك توقفوا عن ذلك لما كان واضعه عقبة بن نافع ومن كان معه: فألح فى هدمه لئلا يكون فى الجامع أثر لغيره، حتى قال له بعض البناة، أنا أدخله بين حائطين، ولا يظهر فى الجامع أثر لغيرك، فاستصوب ذلك وفعله، ولم يمسسه بسوء، وبنى المحراب الجديد بالرخام الأبيض. ويغلب على الظن أن بيت الصلاة فى عهد بشر بن صفوان كان يتألف من ١٨ رواقا، فهدم زيادة الله الرواقين التاسع والعاشر، وأقام بدلا منهما رواقا واحدا فسيحا، فأصبح للمسجد ١٧ رواقا، الرواق الأوسط منها أكثر من بقية الأروقة اتساعا وارتفاعا. ويمكننا أن نفسر عبارة المؤرخين بأن زيادة الله هدم الجامع كله، بأنه هدم أسقف الجامع وأقامها من جديد، بعد أن رفعها عما كانت عليه.

وبنى قبة على أسطوان المحراب. زخارفها على نمط زخارف اللوحات الرخامية التى كسا بها المحراب الجديد. أما أسوار الجامع ومحرابه وأعمدته فظلت كما كانت عليه أيام بشر بن صفوان.

ويبدو أن زيادة الله أنفق على هذه الأعمال المعمارية بالجامع أموالا كثيرة، وأنه زود الجامع بصورته الأخيرة التى نراها فى يومنا هذا، وهى صورة لم تتغير على مر الزمن.. وهو الذى وضع للأروقة نظامها الفريد الذى يشف عن أصالة وابتكار.

وذكر ابن عذارى أنه (زيادة الله) قال: «ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفى صحفيتى أربع حسنات: بنيانى المسجد الجامع بالقيروان، وبنيانى قنطرة أبى الربيع، وبنيانى حصن سوسة، وتوليتى أحمد بن أبى محرز قاضى أفريقية».

الواقع إن ما قام به زيادة الله من عمارة يعد بناء جديدا للجامع، وهو ما كان يفخر به زيادة الله، وفى عام ٢٤٨هـ (٨٦٢م) تمت زيادة فى جامع القيروان، ولا ندرى ماذا قصد

المؤرخون من ذكر هذه الزيادة، ولكننا نعتقد أن المقصود بها تتمة أعمال البناء التى شرع فيها زيادة الله.

ولما تولى إبراهيم بن أحمد بن الأغلب الإمارة زاد فى طول الجامع عام ٢٦١هـ (٨٧٥م)، وبنى القبة المعروفة بباب البهو على مدخل الرواق الأوسط، كذلك أقام إبراهيم بن أحمد المجنبات التى تدور حول الصحن. وظل المسجد على هذه الصورة دون أى تغيير حتى أضاف إليه بنو زيرى واجهات. وقد سجل تاريخ هذه الإضافات على أحد أعمدة المجنبة الغربية، إذ نقشت عليه كتابة بالخط الكوفى نصها «هذا ما أمر بعمله خلف الله بن غازى الأشيرى فى رمضان من عام اثنين وأربعمائة».

كذلك أقام المعز بن باديس بالمسجد المقصورة الخشبية التى ما تزال منصوبة حتى اليوم بجوار المحراب. وفى عام ٦٩٣هـ أمر الخليفة أبو حفص بفتح بابين فى الجدارين الشرقى والغربى من بيت الصلاة. ثم تلا ذلك بعض أعمال إضافية بسيطة لم تغير نظام المسجد وبنيته.

تخطيط الجامع:

جامع القيروان يعد بذلك من أكبر المساجد الجامعة الباقية فى الإسلام، وأعظمها مظهرا، إذ يبلغ طوله ١٢٦ مترا وعرضه ٧٧ مترا، وطول بيت الصلاة فيه ٧٠ مترا وعرضه ٣٧ مترا، وصحنه فسيح واسع طوله ٦٧ مترا وعرضه ٥٦ مترا. ولهذا الصحن مجنبات عرض كل منها نحو ستة أمتار وربع متر، وتنقسم المجنبة إلى رواقين ويشتمل بيت الصلاة على ١٧ رواقا عموديا على جدار القبلة.

لقد كان هذا المسجد منارة العلم فى المغرب الإسلامى قاطبة، حيث تخرج منه من العلماء من يفخر بهم العالم الإسلامى على مر العصور. ولعل أبرز شاهد على ذلك هو أن شيوخ القيروان ممن تلقوا علومهم فى هذا المسجد هم الذين جعلوا من مسجد القرويين بفاس جامعة كبرى، على أثر نزوحهم من القيروان إثر الغارة الهلالية.

كان من بين العلماء الذين نشروا علمهم فى هذا الجامع كل من: على بن زياد تلميذ مالك بن أنس، وأسد بن الفرات الذى أقام مدة طويلة بالمدينة المنورة قادما إليها من القيروان ليأخذ المذهب المالكى. كما أن الإمام سحنون بن سعيد هو الآخر قد سافر إلى المدينة المنورة للاستزادة من العلم وعاد إلى القيروان ليلقى دروسه فى جامعها وليكون إماما وقاضيا فى القيروان.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل إن هناك العديد من علماء القيروان ممن شاركوا في كثير من الأمور السياسية والعسكرية للدولة حيث شارك البعض في وضع خطة مدروسة لغزو جزيرة صقلية في عهد الأغالبة، ولعل قاضي القيروان المشهور «أسد بن الفرات» الذي تلقى علومه في مسجد القيروان. وقاد الجيش إلى فتح صقلية حتى قال المؤرخين في هذا العمل الحربي «إن خطة صقلية هي خطة مدروسة، فكر فيها قادة القيروان آنذاك مليا، وشارك في وضعها علماء القيروان أيضا ولاسيما قاضيها أسد بن الفرات».

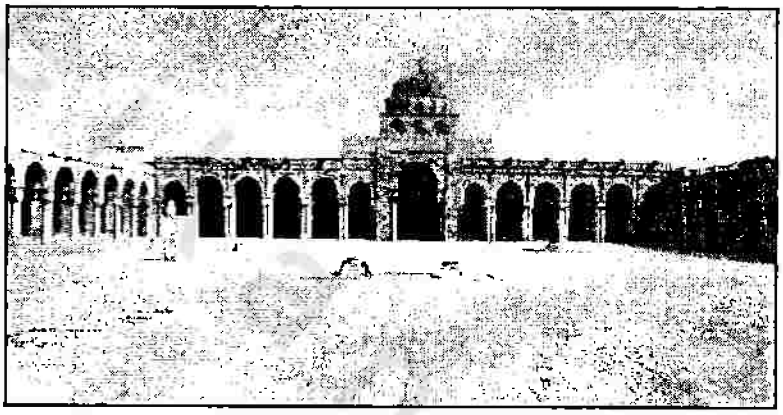

صورة رقم (٢٥) : مسجد القيروان.

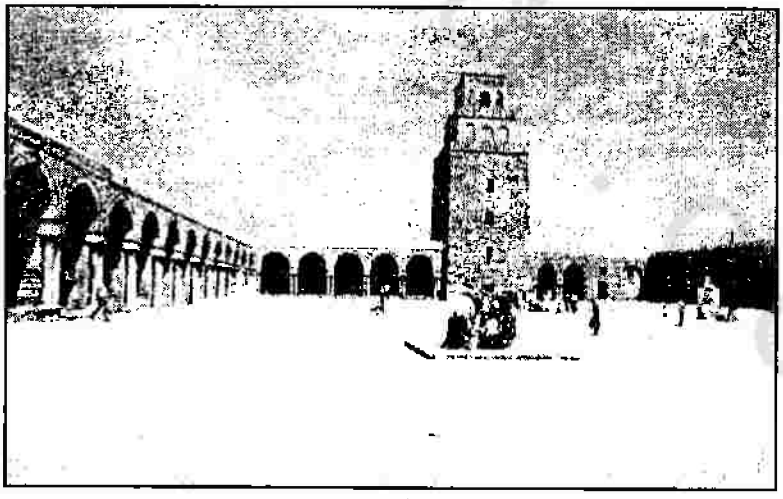

صورة رقم (٢٦): مسجد القيروان.

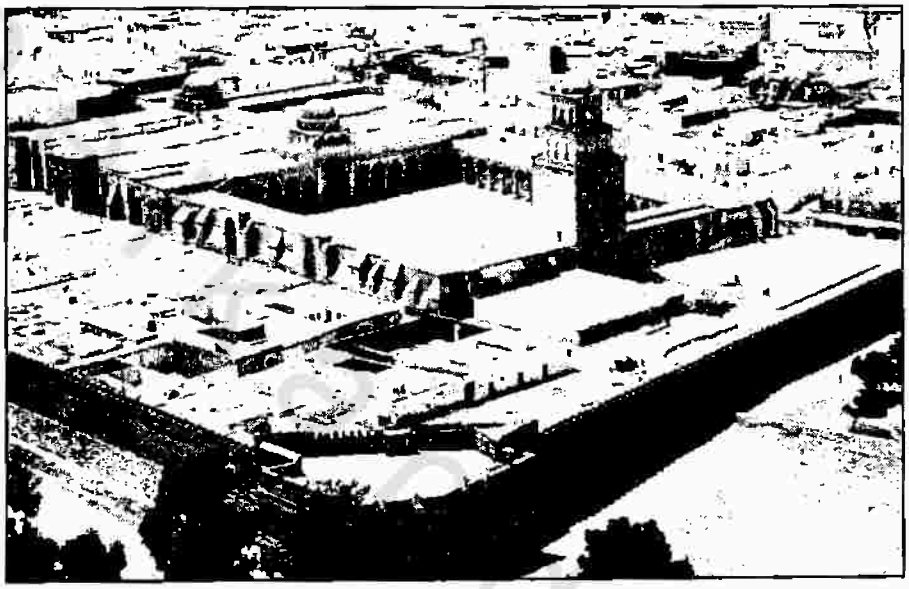

صورة رقم (٢٧): مسجد القيروان داخل أسوار المدينة.

مجمع السليمانية فى اسطنبول

مر أكثر من أربعة قرون على بناء مجمع السليمانية باسطنبول بأمر السلطان سليمان القانونى[1] تحت إشراف المهندس المعمارى سنان، على طراز وخاصية تبهر العقول، حيث يعكس ويحيى هذا الأثر العظيم عهده الذى أنشئ فيه.

*** معمار سنان :**

ظفر عهد السلطان سليمان القانونى، أزهى عصور الدولة العثمانية، بأحد قمم العالم وعباقرته، وهو المهندس سنان، الذى ولد عام ١٤٨٨م فى قرية أغرناس قرب قيصرية، اشترك فى حملة فتح بلغراد ١٥٢١م فى قرية أغرناس قرب قيصرية، اشترك فى حملة فتح بلغراد ١٥٢٦م، وساهم فى حملات سليم الأول على بلاد فارس والشام ومصر، وزار البلقان والمجر والنمسا، وفى عام ١٥٣٨م، وأثناء حملة ملدافيا، حظى بتقدير السلطان بعد أن أقام جسرًا فوق نهر بروت فى ظرف ١٣ يومًا، وهكذا كان اختياره كبيرًا للمهندسين حين بلغ الخمسين من عمره، وفى تلك اللحظة كان سنان قد شيد ٣٦٤ بناء على أراضى الدولة، وفى وقت قصير يصعب معه التصديق، وكان يفحص بعناية المنشآت فى البلاد التى يزورها، ويمزج بين الملاحظات والأفكار المختلفة التى يلتقطها من هنا وهناك وبين التقاليد المعمارية العثمانية، وكان سنان أستاذًا كبيرًا فى بناء القباب وفى تنسيق الساحات، وعبقريًا باقتدار ونجاح فى تصميم القباب المركزية التى كانت الأصل والمثل الأعلى عند معمارى عصر النهضة فى إيطاليا[2].

عندما بدأ بإنشاء مجمع السليمانية فى عام ١٥٥٠م كان يناهز الستين من عمره (توفى فى عام ١٥٨٨م) بالغا من العمر ١٠٠ عام بعد أن أقام آثارًا خالدة فى فن المعمار الإسلامى، ودفن فى مكان قريب من جامع السليمانية بجانب مقر إفتاء اسطنبول.

---

(١) السلطان سليمان القانونى، هو السلطان العاشر من سلاطين الدولة العثمانية، ولد فى عام ١٤٥٤م، وتولى العرش بعد وفاة أبيه، وقد كان عادلاً، وشهد عصره عددا كبيرا من الفتوحات وقد مات بخيمته أثناء محاصرة زجاتوار فى المجر، ودفن فى ضريحه باسطنبول فى عام ١٥٦٦م.

(٢) دوجان كوبان، سنان مبدع الأبنية القبابية، ص ١٥٨ : ١٦٣ ترجمة محمد جلال عباس، مجلة المتحف، العدد ١٥٩. اليونسكو ١٩٨٨م.

*** بدء العمل :**

اتخذ القرار بإنشاء هذا المجمع والمسجد الجامع المعمارى الذى لا مثيل له على إحدى التلال السبعة الموجودة فى مدينة اسطنبول الجميلة، ويقول المعمارى سنان عن بداية إنشائه: «ظهر بخاطر السلطان سليمان خان يوما فكرة إنشاء هذا الجامع، ودعا هذا الفقير سنان لاستشارته فى هذا الخصوص[1] وضع حجر الأساس لهذا الجامع البديع العالم المشهور أبو السعود أفندى شيخ الإسلام وبذلك بدأ المعمار سنان فى أكبر أثر له وأعظمه.

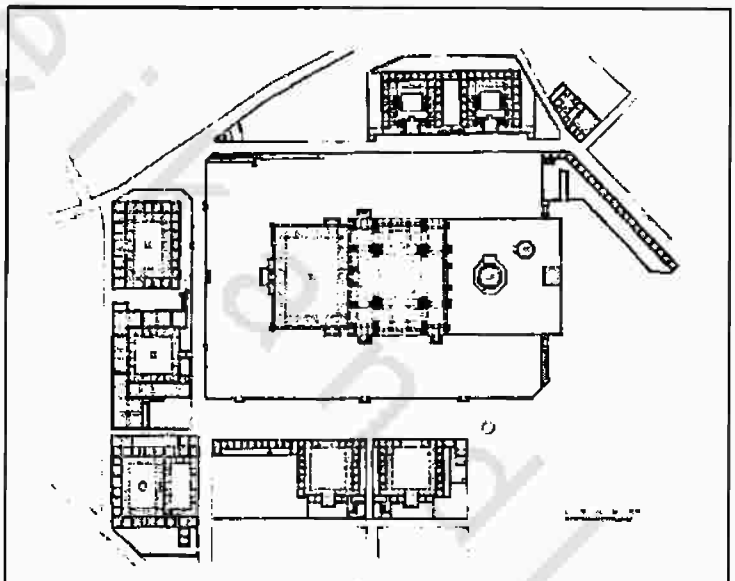

شكل رقم (١٢) مسجد السليمانية - اسطنبول.

*** إتمام الجامع :**

أثناء وجود السلطان فى مدينة أدرنه شاعت شائعة بأن أمناء البناء والكتبة لا يهتمون بإنشاء الجامع حق الاهتمام. بل إنهم كانوا يقومون بترميم منازلهم، وشرع بعض الحمقى بنشر هذه الأقاويل، حتى وصلت إلى أذن السلطان سليمان القانونى.

وعلى هذا قرر القانونى الحضور إلى مكان إنشاء الجامع لتفقد إنشائه، وأكثر ما أغضبه الأقاويل التى تروى أن المعمارى سنان أهمل السليمانية واشتغل فى إنشاءات أخرى.

---

(١) سليمان ملا إبراهيم أوغلو، جامع السليمانية، إنشاؤه خصائصه، ص ١٤، اسطنبول: بدون تاريخ.

حينما دخل السلطان كان سنان مشغولاً مع فناني المرمر في عمل المحراب والمنبر، وأخذ يجيب على أسئلة السلطان بعد تحيته واحدًا واحدا وفي النهاية قال السلطان للمعمارى سنان: «لماذا لا تهتم بجامعي وتشتغل في مبان أخرى؟ ألا يكفيك معمار السلطان محمد خان مثالاً؟ قل لي، متى يتم هذا البناء؟ أخبرني بسرعة، وإلا أنت تعرف، ففهم سنان حالة السلطان العصبية بسهولة وأجاب عن سؤاله: «أيها السلطان! يتم خلال شهرين إن شاء الله» وسأل القانوني هذا السؤال مرة أخرى فأجاب سنان بأنه «عندما ينتهي الشهران يتم أيضا هذا البناء» وعلى هذا أشهد السلطان من معه قائلاً: «معمار! فكر في حالك إذا لم يتم خلال شهرين؟ ثم رجع القانوني إلى القصر غير مطمئن ودعا حاشيته وعبر لهم عن شكه في اتزان سنان العقلي، وقال لهم: «هل يتم هذا البناء خلال شهرين؟ ادعوه إلى القصر لنرى ماذا سيقول؟ فإذا ردد نفس الجواب يكون قد فقد اتزانه العقلي وبهذا الشكل يدخل بناء الجامع في مأزق».

وبناء على التعليمات الصادرة قام رجال القصر بدعوة المعمارى سنان إلى القصر فحضر سنان إلى القصر حينما دعوه، وفوجئ بسؤال من قبل كبار رجال الدولة: «متى يتم البناء؟» فأجاب سنان عن هذا السؤال بلا تردد «لقد قلت لحضرة السلطان إن الجامع سيتم خلال شهرين فأشهد على ذلك من كان معه وأقول لكم إن شاء الله سيتم في شهرين».

وبعد هذه المقابلة القصيرة مع سنان ذهبوا إلى السلطان وصرحوا له بما يلي «أيها السلطان! لقد حل بالمعمار عزم كبيرة إن شاء الله تقام الصلاة في جامعكم الشريف والبديع في أقصر وقت ممكن».

وبناء على هذا العهد الخالي من المزاح مضى سنان بالعمل ليلاً ونهارًا بدون توقف وتابع العمل في كل حدب وصوب فبعد أسبوع حضر السلطان سليمان لتفتيش موقع العمل مرة أخرى وخاطب سنان قائلاً «يا سنان! هل أنت مصر على عهدك؟» فأجاب عن ذلك المعمارى سنان: «بعون الله تعالى عندما ينتهي الشهران فإن الجامع يتم». فأشهد السلطان حاشيته مرة أخرى وعاد إلى القصر.

*** افتتاح الجامع :**

شرع سنان بالعمل دون توقف وبذل قصارى جهده فزاد أعداد أرباب الصنعة والزخرفة. وتم أخيرًا جامع السليمانية في شهرين وافتتح في ٧ يونية ١٥٧٧، وحضر السلطان سليمان القانوني في مراسم الإفتتاح مع كبار رجال الدولة، والعلماء، وقام سنان بتقديم مفتاح السليمانية إلى يد السلطان فنظر السلطان إلى مستشاره مخاطبا إياه: «من الذى يستحق بأن يقوم بفتح باب الجامع؟». فأجاب المستشار «أيها السلطان إن الذى يستحق هذا الأمر هو صاحب الجهد

خادمكم المتواضع المعمارى الكبير»، فالتفت السلطان فى حينه إلى سنان أكبر معمارى فى الشرق والغرب ومد له المفتاح قائلا: بنيت بيت الله هذا بالصدق والوفاء وأنت أولى بفتح بابه» فأخذ سنان مفتاح السليمانية وفتحها للعبادة قائلاً: «يا فتاح! يا فتاح!».

*** مصاريف المجمع :**

يذكر أن مصاريف هذا المجمع «الجامع وما حوله من مبان» ٥٩٧ يوث و ١٦٠١٨٠ آقجه، أى ٥٩ مليون آقجه، وهذا المبلغ يعادل ٢ ترليون ليرة تركية وهو ما يوازى ٤ مليارات دولار أمريكى حاليا.

*** جامع السليمانية :**

كان التصور الذى وضع لجامع السليمانية هو أن يقوم كوحدة مستقلة لها فناء ذو بوائك، وأن يعكس تخطيطه الداخلى مظهره من الخارج، وجعل قطر القبة الرئيسية ٢٦.٥٠ مترًا، وارتفاعها ٥٣ مترًا، وهى أكثر قباب اسطنبول ارتفاعًا بعد آيا صوفيا، وترتكز القبة على أربع دعامات ضخمة، ولزيادة اتساعها من ناحيتى المدخل والقبلة أضيف لهما نصف قبة من كل ناحية بارتفاع ٤٠ مترًا ثم وسعت هاتان المنطقتان بحنيات ركنية إضافية، أما المساحتان الموجودتان إلى اليمين واليسار فقد غطيت كل منهما بخمس قباب، وبدلاً من الرتابة التى قد تنجم عن استخدام قباب صغيرة متماثلة، فقد عمد سنان إلى ابتكار جذاب غير مألوف يتلخص فى تبادل بين قبة صغيرة وأخرى كبيرة حسب المساحة، التى تغطيها القبة، وكانت القبة التى تتوسط الخمس هى الأكبر وتتعادل فى اتساعها مع القبة الركنية.

وبهذا يكون قد تم نوع من التكامل بين منطقة وسط الجامع وبين البلاطات الجانبية، وبذلك يكون المظهر الخارجى قد كشف بوضوح عن داخل المنشأة بكل تفاصيله الدقيقة، وإذا كان الداخل إلى الجامع يمتلئ بطمأنينة روحية وإحساس باللانهائية[1]، فما ذلك إلا نتيجة لارتفاع القبة الشاهق ولإبداعات الزخارف الخزفية التى تكسو حائط القبلة، وقام بعمل النوافذ ذات الزجاج الملون وسائر أعمال النقاشة والبياض، رجل يدعى إبراهيم السكران، ويضئ الجامع الذى يبلغ طوله ٦٩ مترًا وعرضه ٦٣ مترًا، ١٣٨ نافذة.

---

(١) أقطاى آصلان آبا: فنون الترك وعمائرهم، ص ١٩٨، ٢٠٠ ترجمة أحمد عيسى، مركز الثقافة وأبحاث الفنون والتاريخ والحضارة الإسلامية، اسطنبول ١٩٨٧م

*** مقصورتا السلطان والمؤذنين :**

إن مقصورة السلطان بهذا الجامع تقع عن يسار المحراب وهى ترتكز على ثمانية أعمدة من الجرانيت والمرمر، ولكن الدخول إلى هذا المكان من الخارج يتم بواسطة باب خاص، وكان السلطان يصلى فى المقصورة لتوفير الأمن والسكينة له بسهولة لا لأى غرض آخر.

أما مقصورة المؤذنين فهى بجانب المنبر وهى على ١٨ عمودًا مرمر وخلاف هذا المكان يوجد عدد من أماكن التكبير فى مواضع مختلفة من الجامع.

*** الكتابات :**

الكتابات التى بالجامع هى من آثار الخطاطين المشهورين أحمد قره حصارى وحسن جلبى، وقد أضاف قاضى العسكر مصطفى أفندى بعض الكتابات، وقد كتب قسم من هذه الكتابات على أماكن مختلفة ونقش بعضها على الأبواب، أما الباقية فقد نحتت بشكل بارز على المرمر وكتبت هذه الكتابات بأبعاد مختلفة، ومعظم النصوص من القرآن الكريم وقليل منها من الأحاديث النبوية الشريفة.

وأبرز الكتابات تقع فوق الباب الرئيسى وهى ثلاثة أقسام يمين،وسط، يسار، يحتوى القسم الأول على أوصاف السطلان، وفى القسم الثانى ذكر أجداد القانونى بالتسلسل، أما فى القسم الثالث، فإنه دعاء لدوام السلطنة، ولأرواح الأموات وتذكر أوصاف الجامع، وهذه الكتابات قد كتبت باللغة العربية.

نصوص الكتابة فوق الباب الرئيسى :

□ النص الأول :

تقرب إلى رب العظمة والجبروت
وخلاف عالم الملك والملكوت
عبده المقتدر بالقدرة الربانية
وخليفته العزيز بالعزة السبحانية
القائم بأمر الكتاب المكنون
وإجراء أحكامه فى أكناف الربع المسكون
فاتح بلاد المشارق والمغارب
ينصر الله العزيز وجنده الغالب
مالك ممالك العالم
سلطان سلاطين العرب والعجم

□ النص الثانى:

ناشـــر القوانـين السلطانية عاشـر الخواقـين العثمانية
السلطان ابن الســـلطان ســـليمان خان بن الســـلطان
سليم بن السلطان بايزيد بن السلطان محمد بن السلطان
مراد بن السلطان محمد بن السلطان بايزيد بن السلطان
مراد بـــن الســـلطان أورخـــان بن السلطان عثمان

□ النص الثالث :

لازالت سلسلة سلطنة متسلسلة إلى انتهاء سلسلة الدوران، وأرواح أسلافه متنزهة فـى روضـة الرضوان.

بإنشـــــاء هـذا الجامع الرفيع البنيان
البديـــع المثـــال العبقـــرى الشأن
مثابة للنـــاس فى عبـادة الملك المعبود
من العاكفين والقائمـين والركع السجود
وكانت البداية فى أواخر جمادى الأولى
لسـنة ســـبع وخمســـين وتسعمائة
والنهاية فى أواخر ذى الحجة الحرام
لســنة أربـــع وســـتين وتسعمائة

كتبه حسن بن أحمد القره حصارى[1]

* مبانى المجمع الأخرى :

اشتمل مجمع السلطان سليمان القانونى على أكبر وأول جامعة منذ زمن محمـد الفـاتح، كمـا اشتمل على ١٨ مبنى. إلى جانب ما هناك من أضرحـة، ونسـق كـل هـذا بأسـلوب جديـد كـل الجدة وبمفهوم واع لنظريات بناء المـدن، جوهـرة الاسـتفادة المثلـى مـن مدرجـات الربـوة التـى تشرف على المدينة

* مكتبة السليمانية :

كانت المكتبة قسما عن يمين الجامع. وكانت محاطة بشبكات معدنية، أسست هذه المكتبـة فيما بين ١٧٥١ - ١٧٥٢م فى عهد السلطان محمد الأول والصدر الأعظم كوسـا مصطفـى بـاهر.

(١) سليمان ملا إبراهيم، المرجع السابق. ص ٤٦، ٤٧.

وفى عام ١٩١٤م حولت المدرسة الثانية إلى مكتبة السليمانية ومع زيادة عدد الكتب فى هذه المكتبة أضيفت المدرسة الأولى إليها، أما مدرسة الصبيان فقد حولت إلى مكتبة للأطفال، ويوجد بين محتويات هذه المكتبة مخطوطات نادرة، بعضها مهدى من السلطان محمود الأول.

*** الجامعة :**

أنشئت حول الجامع بعض المبانى أثناء إنشائه حيث أسست ٧ مدارس تسمى بالمدارس السليمانية منها خمس بمستوى الثانوية وواحدة منها كلية والأخرى للاختصاص، ويوجد مبنى لمدرسة تعليم الطب يقابله مستشفى، كما ألحق بالمجمع «عمارة خانه» لتقديم الوجبات الغذائية فيه مجانا للمدرسين والطلاب والموظفين والضيوف والفقراء، والمدرسة الثالثة والرابعة بالمجمع لتعليم الطلاب، كما ألحقت به دار للحديث وحمام بالقرب منه.

تلك كانت رحلة لأشهر مجمع معمارى بنى فى العصر العثمانى، وهى رحلة تلقى الضوء على نموذج من نماذج العمارة العثمانية. من خلال المكونات المختلفة للمجمع.

صورة رقم (٢٨) : مسجد السليمانية من الداخل.

صورة رقم (٢٩) : مسجد السلطان سليمان القانونى.

صورة رقم (٣٠): ضريح السلطان سليمان القانونى.

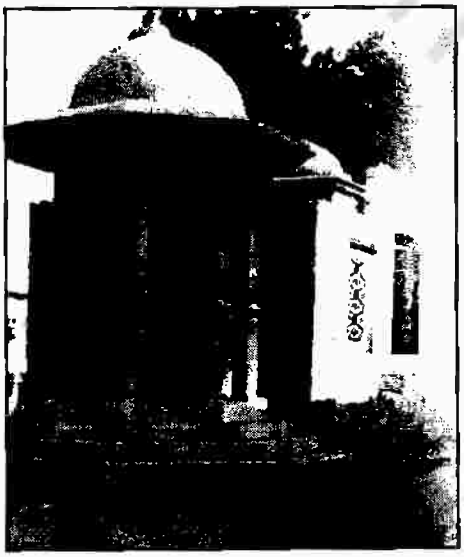

صورة رقم (٣١) : ضريح معمار سنان.

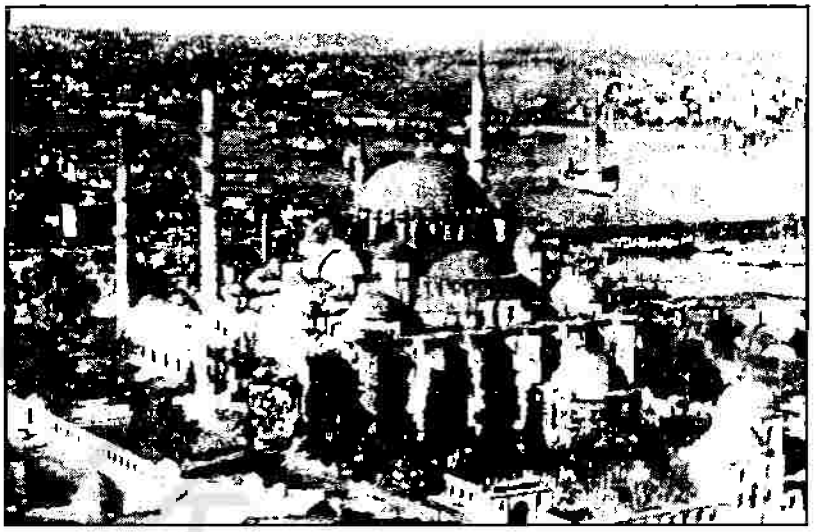

صورة رقم (٣٢) : مجمع السليمانية باستانبول.

رقم (٣٤)

رقم (٣٣)

صورة رقم (٣٣، ٣٤): نماذج من الكتابات بمسجد السليمانية.

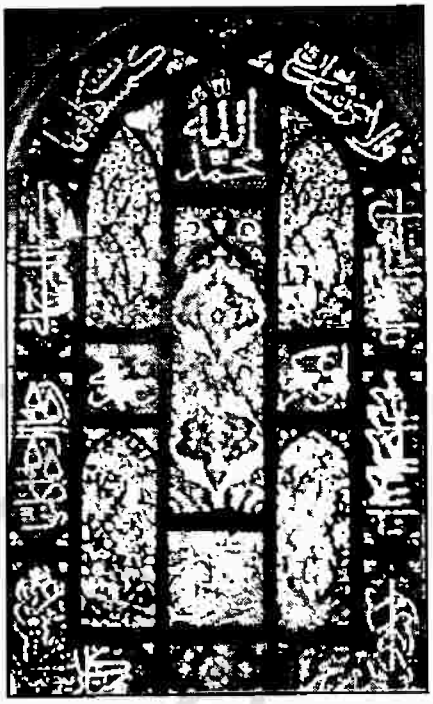

صورة رقم (٣٥): شمسية فى مجمع السليمانية.

صورة رقم (٣٦): حمام السليمانية من الداخل.

مساجد الصين

وصل الإسلام إلى الصين بطرق ثلاثة:

(أ) عن طريق الفتح بالنسبة لمقاطعة التركستان الصينية.

(ب) عن طريق الدعوة فى المناطق الداخلية.

(جـ) عن طريق الدعوة والتجارة فى المناطق الساحلية.

كانت بداية انتشار الإسلام فى هذه البلاد سنة ٦٥١م فى عصر أسرة (تانغ)، وأخذ ينتشر شيئا فشيئا فى عصر أسرة (سونغ)، ثم قوى وازدهر فى عصر (يوان) أو المغول وعصر منغ، أما عصر مانشو فكان عصر المصائب والكوارث على المسلمين لقد هلك فيه الكثيرون والباقون كانوا مثقلين بقيود ذلك العصر، لقد ظل المسلمون يعيشون بعد ذلك فى الصين فترات متقلبة العلاقات مع السلطات الحاكمة فى الصين، ومنها ما تعرضوا له أثناء الثورة الثقافية حيث أغلقت المساجد واضطهدوا، ولكن بعد انتهاء عهد هذه الثورة تحسنت نسبيا معاملة السلطات لهم وأعيد فتح وبناء بعض المساجد[١][٢].

* عمارة المساجد بالصين

جاءت عمارة المساجد الأولى بالصين بسيطة على غرار مساجد الإسلام الأولى بالمدينة المنورة والكوفة والبصرة والفسطاط، ثم تطورت بعد ذلك لتتخذ أشكالا معمارية متميزة تأثرت فيها من ناحية الشكل العام بثلاثة عوامل نستطيع أن نجملها على النحو التالى:

١ - التأثر بروح المعمار الإسلامى[٣]:

مثل الحاجة إلى وجود محراب للصلاة يتميز بالبساطة وهو ما نراه فى العديد من المساجد التى تخلو من الزخارف وهو أمر حث عليه الدين الإسلامى، وإن كانت بعض المساجد وبصفة

---

(١) محمود شاكر، المسلمون فى الصين، بحث فى كتاب الأقليات المسلمة فى العالم المعاصر، ص ٩٩، كتاب مجلة الدارة العدد الثانى، السنة الخامسة محرم ١٤٠٠ هـ/ ديسمبر ١٩٧٩م.

(٢) بدر الدين الصينى، العلاقات بين العرب والصين، ص ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١. نشر مكتبة دار النهضة المصرية، ١٣٧٠/١٩٥٠م.

(٣) عن عمارة المساجد فى الصين يرجع إلى: محمود يوسف لى هواين، المساجد فى الصين، نشر الشركة الصينية لتجارة الكتب، ١٩٨٩م، بكين. مجلة عالم البناء، موضوع عمارة المسلمين فى الصين، العدد ١١٩، ١٩٩١م، ١٤١١هـ.

خاصة كبيرة المساحة أو التى أنشئت من قبل كبار رجال الدولة غنية بالثراء المعمارى والزخرفى.

٢ - التأثر بالطابع المعمارى المحلى:

وذلك باستخدام الأسقف الصينية ذات الأشكال المعروفة، ونتج عن هذا التأثر فى بعض المساجد طغيان للطابع المحلى مع مراعاة متطلبات العقيدة الإسلامية، وأحيانا امتزاج بين الطابع المحلى والطابع المعمارى للعمارة الإسلامية ونتج عن هذا الدمج طابع معمارى متميز.

٣ - التأثر بعمارة المساجد فى آسيا الوسطى:

نرى ذلك بصفة خاصة فى المعالجات المعمارية للمبانى من استخدام المداخل والمآذن ذات الكتل الضخمة التى توحى بالثبات والاستقرار.

ألحقت بالمساجد الكبرى فى الصين مبان عديدة منها ما خصص كمتبات لحفظ المخطوطات، ومنها ما خصص كخزانات لأدوات المسأجد، وفصول تعليمية، ومساكن للطلبة. وهو ما نستطيع أن نطلق عليه مجمعات معمارية إسلامية[1].

□ مرت مساجد الصين بخمس مراحل منذ وصول الإسلام إلى تلك البلاد ومن خلال هذه المراحل نستطيع أن نتتبع عمارة المساجد فى هذه البلاد وهى كما يلى:

****المرحلة الأولى:**

مسجد هوايتشنغ فى مدينة قوانغشو:

بلغت العلاقات الإسلامية الصينية أوجها فى عهد أسرة تانغ (٦١٨ ٩٠٧م)، حيث أصبحت قوانغشو مرفقا لعدد كبير من التجار المسلمين، وقوانغشو هى إحدى المدن الساحلية فى الصين وأبرز ثغورها، ومن هؤلاء التجار جماعة استوطنوا هذه المدينة فبنوا مساجد لأداء الصلاة ومعالجة شئونهم المتعلقة بالدين والعبادات، ويعتقد بأن مسجد هوايتشنغ (الحنين إلى النبى)، من المساجد التى بنيت بواسطة المسلمين المهاجرين إلى الصين، ويشيع بين المسلمين هناك رواية تقول إن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه جاء إلى الصين لنشر الإسلام بأمر النبى ﷺ، ويؤكد هذه الرواية نقش تاريخى على لوح رخامى بالمسجد جاء فيه:

---

(١) فهمى هويدى، الإسلام فى الصين، ص ٤١، ٤٢ سلسلة عالم المعرفة، العدد ٤٣، يوليه ١٩٨١م، محمود يوسف، المرجع السابق، ص ١٣. وقد يكون الوصى سليمان بن عبد الكريم ناظر وقف المسجد الذى أشرف على تجديده.

«هذا هو أول مسجد فى الصين بناه سيدنا وقاص رضى الله عنه، إذ دخل هذه الدار لإظهار الإسلام بأمر رسول الله ﷺ، ثم جدده المتأخرون مرة بعد مرة، قد حفظه الله تعالى إلى الآن سليما من الآفات، وهو فى الصين مبدأ الإسلام ومنبع العلوم، فينبغى لمسلمى الصين أن يزينوا ظهره بإقامة الجماعة، وعلى مسلمى هذا البلد خصوصا إنشاء مدرسة، فاعتبروا يا أولى الأبصار.. التوقيع: الوصى سليمان عبد الكريم».

كلمة جدده المتأخرون مرة بعد مرة، الواردة فى النص تدل على أن تسجيل هذا النص قد جاء متأخرا وهو ما يعنى عدم صحة القصة المختلقة التى لا تتطابق مع الواقع التاريخى، والمرجح أن وقاص الوارد ذكره فى النص قد يكون أحد التجار أو الدعاة المسلمين الذين قدموا إلى الصين فى فترة مبكرة. دمر هذا المسجد فى سنة ١٣٤٣م فى عهد تشيتشنغ (أسرة يوان)، وأعيد بناء المحراب فى سنة ١٣٥٠م وقد تلاشت قاعة الصلاة به فى الثلاثينات من هذا القرن، وأعيد بناؤها مرة أخرى سنة ١٩٣٥م، وهى كبيرة المساحة.. حسنة الإضاءة.. مميزة بخصائص القصور التقليدية الصينية أيضا، ثم أعيد ترميم المبانى المحيطة به، وأصبح بذلك هذا المسجد ضمن قائمة الآثار المحمية بالصين، وتتجلى قيمته الآثارية فى أقدم أجزائه، فمئذنته ما زالت بحالتها القديمة، وهى أسطوانية الشكل، ترتفع ٣٦ مترا عن أديم الأرض، أما جدرانها المبنية بالطوب فتتكون من طبقتين داخلية وخارجية، حشر بينهما تراب لتقوية الجدران، وفى جوف المئذنة سلمان لولبيان، لا يتشابك أحدهما مع الآخر، ولكل منهما ١٥٤ درجة، وظاهرة وجود سلمين بالمئذنة شاهدناها أيضا فى مئذنة الغورى بالجامع الأزهر وهى تتميز بوجود سلمين بها لا يرى الصاعد فيها النازل من السلم الآخر، وفى مئذنة هوايتشنغ نوافذ صغيرة على جدرانها لتسريب الضوء إلى الداخل.

*** مسجد تشيغجينغ:**

مسجد كبير، يشغل مساحة تقدر بهكتار واحد، ويتكون من ثلاثة مبان رئيسية، هى مكان الصلاة والدعوة والبوابة، وقد بنيت مساحة الصلاة بأحجار الجرانيت البيضاء المختلفة الأحجام وهى تشغل مساحة ٦٠٠ متر مربع. وعلى قبتها وجدرانها نقوش من الآيات القرآنية، وتهدمت القبة بفعل الزلازل الشديدة سنة ١٦٠٧م. وبوابة المسجد يبلغ ارتفاعها عشرين مترا وعرضها يقارب ٥ أمتار، وهى مبنية من الجرانيت، وواجهتها معقودة، والبوابة من الداخل تتميز بممر رباعى العقود تفصل بين ثلاث فسحات، وهذه البوابة بديعة الهندسة، متناسقة الأجزاء، جميلة النقوش، وهى جديرة بأن تعد من روائع الفن الإسلامى، ويغلب على هذا المسجد بصفة عامة الطابع المعمارى الإسلامى. ومسجد تشيغجينغ عثر به على نصين تأسيسيين تذكاريين

أحدهما بالصينية ويرجع بناء المسجد إلى سنة ١٣٤٩م، والآخر بالعربية ويرجع بناء المسجد إلى سنة ١٠٠٩ - ١٠١٠م وقد جرى ترميمه بعد ٤٠٠ سنة على يد أحمد بن محمد المقدسى، والنقش العربى يذكر أن المسجد اسمه مسجد الصحابة، وأن مسجد تشيغجينغ الذى جدد سنة ١٣٤٩م قد دمر ونقل نصه إلى مسجد الصحابة الذى غلب عليه اسم المسجد الآخر، والرأى الأخير تم ترجيحه بعد ما عثر على بقايا مسجد تشيغجينغ فى الناحية الجنوبية من المدينة حسبما جاء فى النص الصينى، ومازال المؤرخون مختلفين حول هذا الأمر وإن كنا نتفق مع الرأى السابق، وأدرج هذا المسجد ضمن قائمة الآثار المحمية بالصين سنة ١٩٦١م.

ومن مساجد هذه المرحلة أيضا بالصين: «مسجد تشنجياو أو مسجد العنقاء بمدينة هانفتشو، ومسجد شبانخه بمدينة يانغتشو».

والمساجد الأربعة المذكورة تختلف عن بعضها البعض فى أسلوب العمارة وزمن البناء، غير أنها تشترك فى نقطتين: إحداهما: ظهور هذه المساجد فى المراكز التجارية بالصين، وأن مؤسسيها كانوا من الجاليات التى وفدت على الصين من العالم الإسلامى[1].

* مسجد نيوجيه ببكين:

يعتبر هذا المسجد من أقدم مساجد شمال الصين، فقد بنى سنة ٩٩٦م حسبما جاء فى (تاريخ قانغشاتغ)، وتفيدنا المصادر التاريخية أن أحد العرب ويدعى الشيخ قوام الدين، جاء من بلده إلى الصين، وكان معه ثلاثة أبناء أتقياء هم صدر الدين، وناصر الدين، وسعد الدين، وكانوا أذكياء وأكفاء رفضوا الوظائف فى البلاط الصينى، وقام ناصر الدين ببناء مسجد فى ضاحية بكين الجنوبية - أى ناحية نيوجيه اليوم، بأمر من الإمبراطور.

هذا المسجد يعرف باسم مسجد نيوجيه، وقد كان صغير الحجم فى بادئ الأمر، ثم أصبح على الصورة التى نراها اليوم بعد توسيع بنائه مرارًا فى عهد أسرتى مينغ وتشينغ (١٣٦٨ - ١٤١١م).

وفى سنة ١٤٧٤م أطلق الإمبراطور عليه اسم «لى باى سى» أى دار الصلاة: ولما تم ترميمه سنة ١٦٩٦ على حساب البلاط الإمبراطورى مُنح لوحا مكتوبا عليه «دار الصلاة الإمبراطورية» تبلغ مساحة هذا المسجد حوالى ستة آلاف متر مربع. ومع أن مبانية لا تختلف عن القصور الكلاسيكية الصينية شكلا وتوزيعا إلا أنها مميزة بالزخارف إسلامية الطراز[2].

---

(١) أسس التصميم والتخطيط الحضرى فى العصور الإسلامية المختلفة بالعاصمة القاهرة، ٣٠. إصدار منظمة العواصم والمدن الإسلامية ١٤٤٠هـ / ١٩٩٠م.

(٢) محمود يوسف، المرجع السابق، ص ٢١، ٢٢.

أما قاعة الصلاة فى المسجد فتواجه الشرق وهى تغطى مساحة قدرها أكثر من ستمائة متر مربع، وتتسع لقرابة ألف مصلٍ، ولو ألقيت نظرة على حرم المسجد من الخارج، لوجدته مبنيا كلاسيكيا صينيا، غير أن زخارفة الداخلية إسلامية الطراز تماما، ويشكل المصلى مع الحرم المقابل له وجناحى المسجد الجنوبى والشمالى دارًا مربعة» (أى دارا تحيط بها المبانى من الجهات الأربع وتتوسطها ساحة رحبة).

وأما بوابة المسجد، فهى مفتوحة إلى الغرب، وأمامها حاجز طوبى كبير، ووراءها برج لمشاهدة الهلال، سداسى الأضلاع مزدوج الأفاريز، وتبدو مبانى المسجد منسجمة ومتناسقة ومحكمة، فهى مجموعة كاملة من المبانى الرائعة[1].

** المرحلة الثانية

هاجر العديد من المسلمين من ديارهم على أثر الغزو المغولى لها، واستقروا فى الصين فى عهد أسرة يوان (١٢١٧ - ١٣٨٦م) وتزوج الكثيرون منهم من صينيات وتحولوا بالتدريج إلى مواطنين صينيين، وعملوا بصفة خاصة فى استصلاح وزراعة الأراضى البور وفقا للنظام العسكرى السائد فى الصين آنذاك، وعمل بعضهم فى التجارة والحرف اليدوية، وتقلد القليل من المسلمين فى عهد أسرة يوان مناصب عسكرية وحكومية هامة، ونتج عن ذلك كله تشييد العديد من المساجد، فقيل إن السيد شمس الدين أحد السياسيين المسلمين، قد تم له بناء اثنى عشر مسجدا فى شانتشان (كونمينغ اليوم) وحدها، ومن المساجد التى ترجع إلى هذه المرحلة:

* مسجد دينفتشو

تقع دينفتشو (ولاية دينغشيان اليوم) وسط مقاطعة خبى وهى من المناطق المأهولة بالمسلمين ويتواجد داخل المدينة مسجد قديم، يؤكد المؤرخون أنه من عهد أسرة يوان، ذلك أن ثلاثة عشر نصا كتابيا قائمة أمام المسجد تفيدنا بمراحل بنائه وتوسعته فى ذلك العهد والفترات اللاحقة به، من ذلك نص يعود إلى سنة ١٣٤٨م، والكتابات الموجودة بهذا النص تعتبر من أقدم كتابات المسلمين الصينيين الباقية حتى الآن، وبعد مرور أكثر من مائة سنة على ذلك أعيد بناء المسجد مرة ثانية، ونعرف ذلك من نص كتابى يعود إلى سنة ١٥١٢م وذلك بمساعدة من الجنرال تشن يو الذى كان يتولى رئاسة الشئون العسكرية ببكين آنذاك، وبعد أكثر من ٢٠٠ سنة أعيد ترميم المسجد مرة ثالثة حسبما جاء بنص كتابى بالمسجد يعود إلى سنة ١٧٣١م.

---

(١) محمود يوسف، المرجع السابق، ص ٢٨، ٢٩.

وصفوة القول أن مسجد دينغتشو الذى تطور على أساس ثلاث قاعات قد تكامل إلى ما هو عليه الآن بعد ترميمه ثلاث مرات خلال أربعمائة سنة، ومما يستحق الذكر أن تسليط الأضواء على المساجد على نحو متسلسل فى ثلاث فترات تاريخية - عصر - يوان ومينغ وتشينغ - كما رأينا بالنسبة لمسجد دينغتشو أمر منقطع النظير فى تاريخ الصين.

*** مسجد سونفجيانغ فى شانغهاى:**

كانت سونفجيانغ بلدة ذات موقع استراتيجى هام فى الدفاع البحرى فى عهد أسرة يوان. وقد عين عليها حاكم مسلم اسمه ناصر الدين فى عهد تشيتشنغ (١٣٤١ - ١٣٦٨م)، ليعمل حاكما. وفى عهده زاد تعداد المسلمين بها، وبنت حكومة أسرة يوان مسجدا امبراطوريا فى سونفجيانغ.

يقع هذا المسجد فى شارع قانغينغهانغ من بلدة سونفجيا نغ، وتشتمل مبانيه على مصلى ومئذنة ودورة مياه للوضوء وقاعة للدعوة، وجرى ترميم هذا المسجد وتوسيع بنائه أربع مرات حسبما جاء فى التدوينات التاريخية المتوفرة هناك، فى سنة ١٣٩١ و ١٥٨٢ و ١٦٧٧ و١٨٢١م. ورمم آخر مرة فى سنة ١٩٨٠م، وأدرج فى قائمة الآثار التاريخية المحمية فى شانغهاى.

**** المرحلة الثالثة**

تمثل هذه المرحلة عهد أسرة مينغ (١٣٦٨ ١٦٤٤م)، وفى عهد هذه الأسرة أنشئت مساجد كثيرة ومنها:

*** مسجد هواجيويه بمدينة شيآن**

كانت شيآن تحمل اسم تشانغان، وهى عاصمة الصين فى عصر أسرة تانغ (٦١٨ - ٩٠٧م) كما هى بداية طريق الحرير المعروف، وسكنها العديد من المسلمين المهاجرين إليها، وتذكر المصادر العربية أن إمبراطور الصين لى يو من أسرة تانغ قد بنى مسجدا فى المدينة سنة ٧٦٢م، ويوجد بالمدينة اليوم بضعة عشر مسجدًا وجامعا، ولكن جامع (هواجيويه) (التوعية) هو الأكبر من نوعه حجما. ويجمع أغلب المؤرخين أن تاريخه يرجع إلى أوائل عهد أسرة مينغ.

وقد وصفه الأستاذ فهمى هويدى عند زيارته له كما يلى: «هذا المسجد مصمم على الطراز الصينى، وعمره أكثر من ١٢ قرنا، ومنشآته موزعة على مساحة ١٣ ألف متر مربع، وقاعاته يبلغ عددها ٦٠، وهو ليس مكانا للصلاة فقط، ولكنه مصمم بحيث يؤدى عدة وظائف دينية

وثقافية واجتماعية فى آن واحد، وللمسجد قاعة للصلاة ومئذنة وقبة وسبيل يروى عطش العابرين، ولكن ذلك كله موضوع فى تصميم صينى صرف، وموزع فى أبنية متتابعة، بحيث لا يمكن أن تعرف الوظيفة الحقيقية لكل بناء إلا إذا نبه زائره إلى هذه الوظيفة، والغريب أن توزيع أبنية المسجد يمكن القادم من أن يرى المحراب من على بعد ألف متر وأن يظل متجها نحو القبلة وهو فى طريقه إلى قاعة الصلاة، بحيث يسلك بابا من وراء باب وقوسا وراء قوس ليجد نفسه فى النهاية واقفا أمام المحراب، ومضبوطا على الكعبة.

وعلى واجهات المبانى المؤدية إلى قاعة الصلاة نقشت آيات من القرآن الكريم، ولفظ الجلالة باللغة الصينية، وكل مبنى من هذه المبانى يعد تحفة معمارية بحد ذاته. أما قاعة الصلاة من الداخل فإن جدرانها المغطاة بالخشب الذى حفرت عليه آيات من كتاب الله، والنقوش البديعة التى تكسو السقف، والأعمدة المرمرية التى حفرت على جنباتها الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، هذه العناصر تضفى على المكان جمالا أخاذا وهيبة لا مثيل لها.

وعلى جانبى فناء المسجد رصت حجرات عديدة، تضم بيت الإمام ومكتبة، وقاعات كبيرة مليئة بالأثاث الصينى الفاخر، ثم متجر لبيع العاديات! وفى ركن جنوبى حمام يقصده المسلمون يوم الجمعة، حيث يغتسلون بالماء الساخن ويتعطرون ويتوجهون إلى الصلاة.

والطريف أنه قد أقيم خلف المصلى تل ترابى مرتفع، تكسوه الحشائش الخضراء، وقد خصص فى التصميم الأصلى ليصعد فوقه الإمام أو من يمثله لرؤية الهلال خاصة فى شهر رمضان[1].

* جامع عيدكاه بمدينة كاشغر

تقع مدينة كاشغر فى غربى منطقة شينجيانغ الويغورية ذاتية الحكم، وترك قتيبة بن مسلم الباهلى آثار قدميه فيها سنة ٧١١م فأصبحت مركزا إسلاميا ذائع الصيت للدانى والقاصى، أما «عيدكاه» فهى كلمة مركبة من العربية والفارسية وتحمل معنى «مكان اجتماع فى الأعياد»، وتبلغ مساحة جامع عيدكاه الواقع فى شمالى غربى ميدان عيدكاه فى قلب مدينة كاشغر أكثر من سبعة عشر ألف متر مربع، ويعتبر بذلك أكبر مساجد الصين.

وقد قيل: إنه لما دفن جثمان سكسبر مرزان حاكم كاشغر سنة ١٤٢٦م، بنى مسجد صغير بجانب قبره. وأصبحت هذه البقعة مقبرة عامة لحكام كاشغر ويارقند فيما بعد، وفى سنة ١٧٨٨م تم توسيع بناء المسجد الصغير بتبرعات سيدة مسلمة تدعى قوليريرا، وأطلق عليه منذ

---

(١) فهمى هويدى، المرجع السابق، ص ٢٠٥، ٢٠٦.

ذلك الوقت «عيدكاه» أما فى سنة ١٨٠١م، فقد كان هناك سيدة مسلمة أخرى تدعى بورو يربيار، أعدت نفقات سفرها إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، ولكن نيران الحرب اعترضت طريقها، فاضطرت إلى العودة من حيث أتت، ثم تبرعت بنفقات سفرها لإعادة بناء المسجد، كما وقفت أربعين هكتارا من الأرض عليه، وبعد فترة من ذلك قام المسلمون هناك بحفر بحيرة اصطناعية وشق ترع وغرس شجيرات المنطقة المحيطة بالجامع، وفى سنة ١٨٧٦م. أضيفت إلى الجامع دورة مياه للوضوء ومئذنة وحجرات للدراسة والسكن من شأنها استيعاب أربعمائة دارس، كما بنيت قبة على سطح مبنى المصلى، الأمر الذى زاد من روعة المسجد إلى حد كبير، وحين ضربت الزلازل مدينة كاشغر ١٩٠٠م، تعرض جامع عيدكاه لدمار شديد، فلجأ المسلمون هناك إلى جمع التبرعات لإعادة بنائه، أما المئذنتان اللتان ترتفعان على جانبى بوابة الجامع حاليا، فقد تم بناؤهما فى أثناء ذلك بالضبط، وقد رمم المسجد فى عصرنا الحاضر، وهو يعتبر من أهم الآثار المحمية بالصين.

**** المرحلة الرابعة:**

هذه المرحلة تقع فى عهد أسرة تشينغ التى كانت تتبع سياسات مناهضة للإسلام، وإن اضطرت أحيانا إلى استمالة المسلمين لدواعى سياسية، وفى ظل محاباة المسلمين أنشأت العديد من المساجد، ومن مساجد هذه المرحلة:

*** جامع تونغشين**

تقع ولاية تونغشين فى المنطقة الجبلية الجنوبية بنيغشيا، ويمثل المسلمون فيها ٨٠٪ من مجموع سكانها. ويوجد بها اليوم ثلاثمائة مسجد، ويعتقد أن المسجد الجامع بتونغشين يرجع إلى عهد أسرة تشينغ، وقد كان مقرا للثوار المسلمين وذلك فى الفترة من ١٨٥٣ - ١٨٦٤م، وتعرض المسجد لأضرار عديدة وحرائق على يد القوات المعادية سنة ١٨٥٦م بعد احتلالها للمدينة. وبعد أربعين سنة قام المسلمون بإعادة بنائه اعتمادًا على تبرعاتهم، الأمر الذى جعله يحتفظ بالكثير من ملامحه الأصلية، وأعلن فى سنة ١٩٣٦م عن تأسيس حكومة ولاية يوهاى ذاتية الحكم لقومية هوى.

*** جامع هوهيهوت**

هوهيهوت عاصمة منطقة منغوليا الداخلية، ويوجد بها ثمانية مساجد، أقدمها وأكبرها هو جامع هيهوت خارج بوابة المدينة القديمة الشمالية وقد بنى سنة ١٧٨٩م. عرفت مبانى جامع هوهيهوت بفخامتها وروعة هندستها، أما مبنى المصلى فيه فمن طراز القصور

الصينية، تعلوها خمس مقصورات جميلة، سداسية الشكل متفاوتة الارتفاع، مما جعلها تنفرد بأسلوب معمارى خاص.

*** المرحلة الخامسة:**

تمتد هذه المرحلة من سنة ١٩١٢م إلى وقتنا الحاضر وقد بنى فى هذه المرحلة العديد من المساجد ومنها:

*** مسجد دونغقوان فى مدينة شينينغ:**

شينينغ هى عاصمة مقاطعة تشينغهاى، حيث يقطن المسلمون بكثافة، وقد بنى مسجد صغير هناك فى مطلع عهد أسرة مينغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤م) على يد الجنرال المسلم موينغ، لكنه دمر على أيدى سلطة أسرة تشينغ (١٦٤٤ - ١٩١١م)، فقام المسلمون بإعادة بنائه، ثم هدم ثانية.. وبعد سنة ١٩١١م تهيأ للمسلمين إعادة بنائه واستغرق هذا العمل سنتين، ولكنهم فكوه سنة ١٩١٦م بسبب انحراف قاعة صلاته عن القبلة، ولما تم تحديد القبلة، أعيد بناء المسجد على نطاق واسع، فى المدة بين ١٩٤٦ و ١٩٤٧م وأضيف إليه جناحان أحدهما جنوبى والآخر شمالى مكونان من طابقين.

كما أضيف له بوابتان ومئذنتان وأكثر من ثمانين غرفة إضافية حتى أصبح جامعا على الصورة التى نراها اليوم. يشغل جامع دونغقوان مساحة تربو على ١٣,٦٠٠ متر مربع، تبلغ المساحة المبنية منها ما يقرب من ٤,٦٠٠ متر مربع، لذلك لا يعتبر أكبر جامع فى مقاطعة تشينغهاى فحسب، بل هو غالبا ما يقرب من جامع عيدكاه بمدينة كاشغر وجامع هواجيويه بمدينة شيآن.

وهو يجمع فى عمارته بين فن العمارة الصينى التقليدى وأسلوب العمارة الإسلامية، والمدخل الأول للجامع يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار وعرضه خمسة عشر مترا وأعلى عقده كتابات مذهبة نصها: «جامع دونغقوان فى شينينغ» وبين المدخل الأول والمدخل الثانى الذى يليه ثلاثون مترا، ولدى دخول الزائر من هذا المدخل يجد نفسه أمام صحن تبلغ مساحته ٤,٥٠٠ أمتار مربع ونصف المتر، وعلى جانبه جناحان جنوبى وشمالى مكونان من طابقين، أما الجناح الشمالى فمخصص للاستقبال وخزن الكتب والاجتماع العام، بينما الجناح الجنوبى مخصص لسكن طلاب العلم والبحوث التعليمية، وتنتصب فى غربى صحن الجامع قاعة الصلاة وهى تغطى مساحة قدرها ١٣٦ مترا مربعا.

تلك كانت لمحة عن مساجد الصين وطرزها المعمارية وعصور إنشائها، وهى مساجد مازلنا فى حاجة إلى المزيد من الدراسات للتعرف عليها وعلى التراث الإسلامى وتاريخ المسلمين بهذه البلاد.

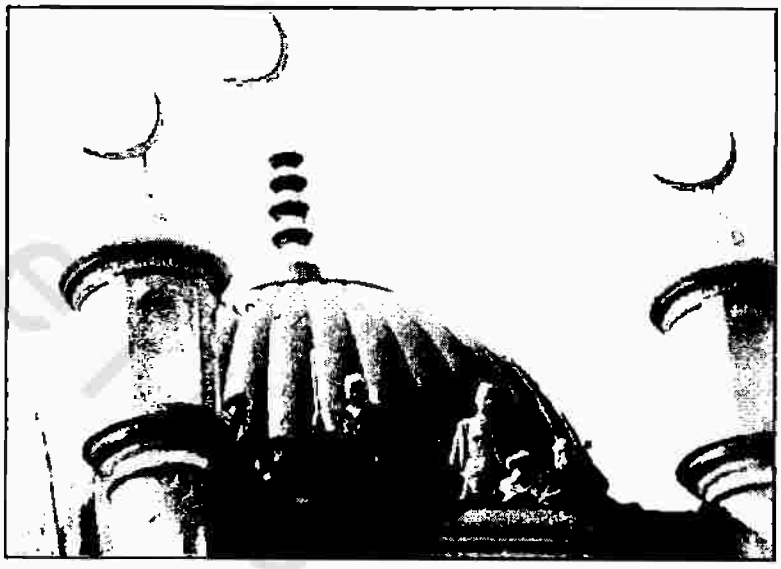

صورة رقم (٣٧): جامع نانقوان بمدينة أورومتشى بالصين.

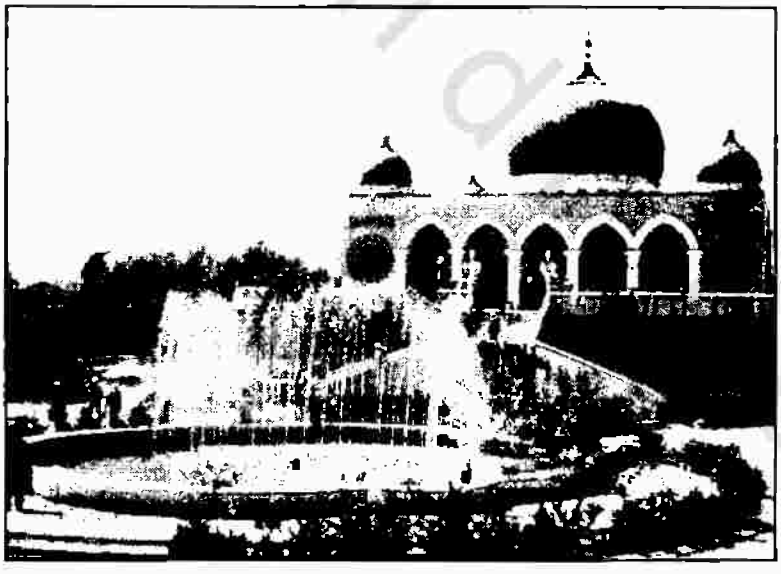

صورة رقم (٣٨) : مسجد نانقوان بمدينة بيتشوان عاصمة إقليم نينغشيا.

صورة رقم (٣٩) : مسجد هوايتشنغ (الحنين إلى النبى) فى مدينة قوانغشو.

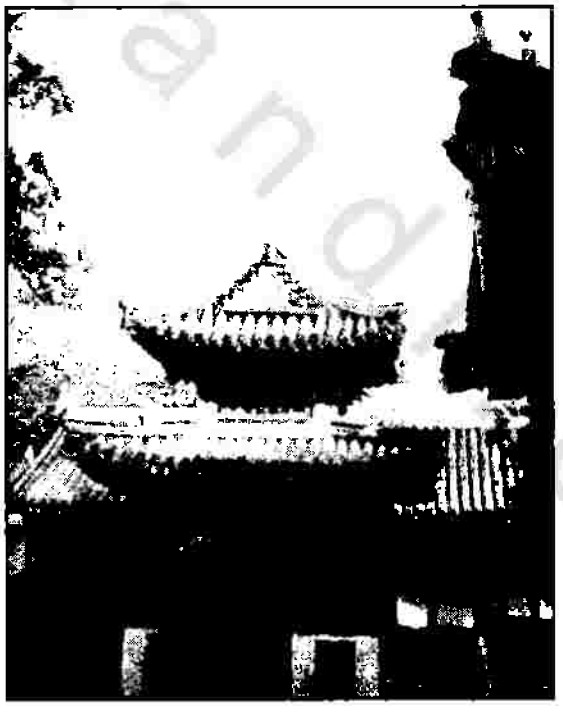

صورة رقم (٤٠) : مسجد نيوجيه ببكين.

صورة رقم (٤١) : مسجد تشينفيجينخ فى مدينة تشيوانتشو.

صورة رقم (٤٢) : آيات قرآنية محفورة على الحجر فى مسجد تشينفيجينخ فى مدينة تشيوانتشو.

العمارة الإسلامية فى رشيد

الموقع :

تقع مدينة رشيد على مقربة من مصب فرعها، فلا تبعد عن البحر المتوسط أكثر من ١٥ كيلو متر، وقد أتاح الموقع الهام أن تكون من مخارج الدلتا الرئيسية، حيث كان فرع رشيد من طرق المواصلات الهامة فى العصر الإسلامى، فتمر به السفن ما بين العاصمة ومدينة الإسكندرية، ولكن هذا الطريق النهرى - البحرى، كان يلقى منافسة من خليج الإسكندرية زمن الفيضان[١] كما كان يوجد خليج الحافر الذى يربط فرع رشيد ببحيرة إدكو وإن كانت أهميته أقل.

أما من حيث العلاقات المكانية الأخرى - أى عبر الطريق البرى - فقد كانت رشيد على الطريق الزراعى الواصل بين رأس الدلتا - حيث العاصمة المصرية - مجتازا وسطها حتى رشيد، ومنها يسير الطريق على سيف البحر غربا إلى الإسكندرية، ولكن لهذا الطريق عيوبه، فهو لا يسلك زمن الفيضان فى الدلتا، كما أن له مخاطره عند مصب بحيرة إدكو على نحو ما ذكر البكرى من تعرض دواب الحمل التجارية للوقوع فى مياه البحيرة[٢].

النشأة والتسمية :

تعد رشيد من المدن المصرية القديمة - السابقة على الفتح الإسلامى - وقد عدت من البلاد التى فتحت صلحا على يد عمرو بن العاص، بما ذكر من وجود كتاب بذلك عند صاحبها[٣] وقد وردت فى جغرافيا سترابون باسم بوليتين وأنها واقعة على مصب فرع بوليتين من النيل، وذكر إميلينو فى جغرافيته فقال: إن اسمها القبطى رشيت ومنه اسمها العربى رشيد[٤].

---

(١) أول من حفر خليج الإسكندرية الإسكندر ليمد مدينة الإسكندرية بالمياه وقد أعيد حفره فى عصر الناصر بن محمد بن قلاوون من العطف (المحمودية حاليا) على الشاطئ الغربى لمدينة فوة حتى يلتقى بمجرى الخليج القديم شمال دمنهور، وقد أعيد حفره مرة أخرى فى عهد محمد على وسمى ترعة المحمودية. انظر خالد عزب، فوة مدينة المساجد، ص١٧، ١٥ مؤسسة الأهرام ١٩٨٩ م.

(٢) د. عبد المال الشامى، مدن الدلتا فى العصر العربى ص ٢١٧، رسالة دكتوراه محفوظة بمكتبة جامعة القاهرة.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص ٨٥.

(٤) محمد رمزى القاموسى، القسم الثانى، ص ٢، ص ٣.

أهميتها فى العصر الإسلامى:

وصفت مدينة رشيد فى العصر الإسلامى بأنها مدينة عامرة آهلة قريبة من مصب فرع رشيد بها أسواق صالحة وحمامات ولها نخيل كثير وارتفاع واسع[1] وقد وصفها الإدريسى فى كتابه وصفا يبين لنا نشاطها الاقتصادى فى عصره، إذ يذكر أنها مدينة متحضرة لها سوق وتجار وفعلة، ولها مزارعها وغلاتها من الحنطة والشعير وبها من النخيل الكثير وأنواع من الفواكه الرطبة، وبها من الحيتان[2] وضروب السمك من البحر المالح والسمك النيلى كثير، وبها يصاد الدلنيس (أم الخلول) ويملحونه ويسافرون به إلى كل الجهات وهو من بعض تجارتهم[3].

وقد زار الإدريسى مصر فى العصر الفاطمى، أما فى العصر الأيوبى فقد تدهور حال المدينة. وقد وصفها ياقوت الحموى بأنها بليدة، وقد أرجع ذلك التدهور إلى أثر هبوب الرمال على المدينة فيقول البكرى «رشيد مدينة على كثيب رملى عظيم فإذا هبت الريح الغربية - الرياح الشمالية الغربية - وهى تشتد عندهم، ملأت عليهم سككهم وبيوتهم رملا، فلا يقدرون على التصرف فى أسواقهم، ويضيف الوطواط ٧١٨ هـ، أن أهالى رشيد ينقلون منازلهم كل حين هربا من الرمال لئلا يطمهم كما طم الفرما، ولم يستطع أهالى رشيد الصمود أمام هذه الظاهرة كثيرا، فانتقلوا إلى فوة التى صارت قصبة - عاصمة - الإقليم[4].

وقد اكتسبت مدينة رشيد فى العصريين الأيوبى والمملوكى صفة حربية خاصة مع اشتداد الصراع الإسلامى الصليبى فبنى بها الظاهر بيبرس مرقبا حربيا لكشف البحر[5] وتعرضت رشيد لحملتين صليبيتين أولاهما فى عام ٧٦٧ هـ والثانية فى عام ٧٨٦هـ واتخذها السلطان الأشرف برسباى كقاعدة حربية لأسطوله المتجه لفتح قبرص حيث خرجت منها ثلاث حملات حربية[6] ولاشك أن الأشرف برسباى قد أولى المنشآت الحربية برشيد عناية خاصة.

واستمر هذا الاهتمام بها فى عصر السلطان الأشرف قيتباى حيث أنشأ بها برجا حربيا وكان المشرف على إنشائه مقبل الحسينى جقمق الظاهرى[7]، وشيد السلطان الغورى سورا وأبراجًا

---

(١) اليعقوبى، تقويم البلدان، ص ٣٣٨ . ابن حوقل، المالك والمعلم، ص ١٣١ .

(٢) الحيتان المقصود بها هناك السمك البورى.

(٣) الإدريسى، نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ص ١٦٢ طبعة ليدن .

(٤) د. عبد العال الشامى، مرجع سابق، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٥) المقريزى، السلوك فى معرفة دول الملوك، ص ١، ص ٤٤٦.

(٦) صالح بن يحيى، أخبار السلف من ذرية بحتر بن على أمير الغرب بيروت المعروف بتاريخ بيروت، ص ٢٥٠.

(٧) عبد الرحمن عبد التواب، قايتباى المحمودى، ص ٢٠٢، سلسلة الأعلام ص ٢٠.

لحفظها[1] وشجع الأجانب على الإقامة فيها بعد أن كان محظورًا عليهم دخولها لصفتها الحربية منذ عهد الأيوبيين، وكان منعهم من ذلك يرجع إلى الشك الذى كان يحيط بهم من محاولتهم غزو مصر من الشمال[2]. وعقب الفتح العثمانى لمصر عام ٩٢٣هـ قام السلطان سليم بزيارة رشيد وأشاد بها كثغر من الثغور المصرية[3] واعتنى بها العثمانيون، فأنشأ سليمان باشا الخادم بها قيسيارية[4] وفندقًا[5] كما أنشأ داوود باشا بها وكالة[6] وأنشأ على باشا فندقا ووكالة برشيد. كما أهتم أحمد باشا الخادم بها بإنشاء وكالة وقهوة كما قام محمد على باشا السلحدار بإنشاء وكالة أخرى خصصت لكبار المسافرين، بالإضافة إلى إنشاء عدة حوانيت وقهوة وسوقا للصاغة[7].

ويعكس اهتمام هؤلاء الولاة بمدينة رشيد مدى أهميتها فى العصر العثمانى وكان نتيجة هذا الاهتمام أن أصبحت رشيد من أهم الموانى التجارية إلى مدينة رشيد قائلا «وعندما تأتى سفن النقل الكبيرة بقصد التجارة تسرع المراكب الصغيرة من الداخل ذاهبة إليها وتتولى حمولتها ثم تدخل مركب النقل بعد ذلك إلى الداخل»[8]. ويرجع السبب فى عدم دخول السفن الكبيرة إلى ميناء المدينة محملة ببضائعها إلى العيوب الملاحية لبوغاز رشيد، تلك العيوب التى أشار إليها وفصلها الجغرافيون المسلمون منذ فترة بعيدة ومنهم البكرى وأبو الفداء[9].

تنوعت المنتجات التجارية بمدينة رشيد واشتهرت على وجه الخصوص بتجارة الأرز، وكان للتجار العثمانيين نصيب كبير فى هذه التجارة[10] ووجدت بها تجارة القمح الشامى. والشىء الملفت للنظر أن بعض المغاربة المقيمين برشيد اشتغلوا فى هذه التجارة، ويرجع ذلك إلى الأرباح

---

(١) ابن اياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ص ٥، ص ٩٤ ـ ٩٥.

(٢) نعيم وصفى زكى، طرق التجارة ومحاطتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، ص ٩١.

(٣) محمد محمود زيتون، إقليم البحيرة، ص ١٢٧.

(٤) سوق تجارى.

(٥) المرجع السابق، ص ١٢٧، ١٢٨.

(٦) د. آمال العمرى، دراسات فى وثائق داوود باشا والى مصر، ص ٣١.

(٧) محمد زيتون، مرجع سابق، ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

(٨) بيرى رئيس، أحد قواد البحرية العثمانية العظام، الف كتابا أسماه البحرية، عمل فى مصر سنوات عديدة، وتولى قيادة الأسطول العثمانى فى البحر الأحمر.

(٩) خالد عزب، مرجع سابق، ص ١٥.

(١٠) د. صلاح هريدى، الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى مدينة رشيد، ص ٣٣٤، مقال بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

الهائلة التى تجبى من الاشتغال بها، خاصة أن القمح كان من السلع التصديرية، كان لأهل رشيد نصيب فى تجارة السكر الذى كان يرد إليها من فوة، وكذلك وجدت تجارة الياميش برشيد، وخصوصا الجوز القبرصى.

اشتهرت رشيد بتجارة المنسوجات وخاصة الكتان، لشهرتها فى صناعته، وكان يصدر للخارج عن طريق الأوربيين، ويلاحظ أن الأوربيين وخاصة الإيطاليين الذين كانوا يقومون بعملية الاستيراد والتصدير مع التجار من أهالى المدينة. ومن البضائع الرئيسية التى كان الأوربيون يقومون باستيرادها الأخشاب[1]. ويتعهد الأهالى بتوريد الخشب اللازم للترسخانة (الترسانة العثمانية) وفى تلك الحالة يورد الخشب بصفة عاجلة دون أى تباطؤ أو إهمال، ومن يهمل ذلك يعامل بحزم، كما يورد معه الزفت، ومن الملاحظ أن التجار كانوا يقومون ببيع الأخشاب بالآجل والدفع بعد مدة معينة. كما قام التجار المغاربة بالتعامل فى هذه التجارة[2] كما كان يوجد برشيد تجارة من نوع غريب ألا وهى تجارة الشعر. فيتفق مع بعض الشعراء على كتابة عدد من الأبيات بسعر معين ويسدد الثمن بعد الانتهاء من الكتابة[3] ومن المحتمل أن أبيات الشعر المحفورة على شواهد القبور التى عثر عليها بجبانة رشيد تكون من هذه الأبيات المشتراة.

تركز النشاط الحرفى فى رشيد فى الشارع الرئيسى للمدينة والذى يمتد من الجنوب إلى الشمال. (حيث يوجد فى الجنوب الجامع الرئيسى للمدينة وهو جامع زغلول، أما فى الشمال فيوجد جامع المحلى، وبخلاف هذين المسجدين الكبيرين يوجد مساجد أخرى أقل أهمية فى هذا الشارع). ويتفرع من هذا الشارع حوار وأزقة، توزعت بها أنشطة الحرفيين بالمدينة من حدادين ونحاسين وخراطين ونجارين وصناع الشمع ومازال بالمدينة شارع يحمل اسم معمل الشمع، وكان يأتيها أيضا شمع من مدينة المنصورة[4]. وعرفت المدينة صناعة الأوانى النحاسية كالطشوت والمواقد والصوانى ونحوها، وصناعة الحلى ذات الصبغة المحلية[5].

وكل ما سبق ذكره يوحى بانتعاش الحياة الاقتصادية بالمدينة فى العصر العثمانى، حيث أصبحت من كبريات المدن المصرية، وليس أدل على هذا الانتعاش من ذلك الخبر الذى أورده

---

(١) وثائق المحكمة الشرعية رشيد، سجل ١٤، مادة ٦٧٦، ص ٢٠٠ بتاريخ ١٦ رمضان ٩٨٧ هـ/ ١٥٧٩ م، سجل رقم ١٨ مادة ٢٧٣ ص ٤١٢ تاريخ ربيع الأول ٩٨٧ هـ/ ١٥٧٩ م.

(٢) صلاح هريدى، المرجع السابق، ص ٣٤٣.

(٣) المرجع السابق.

(٤) د. محمد نور فرحات، القضاء الشرعى فى العصر العثمانى ص ٥١، سلسلة تاريخ مصر.

(٥) د. عاصم رزق، مركز الصناعة فى مصر الإسلامية، ص ١١٥.

الإسحاقى عندما دخل الوالى الجديد إبراهيم باشا الصلحدار ثغر رشيد فى ١٢ شعبان ١٠٣١هـ فقد ذكر «وفى عهده ارتفع غلاء الأسعار، وضبط بيع الذرة فى دمياط مدة ثلاثة شهور فبلغ أكثر من ستين ألف أردب، أما البيع فى رشيد فضعف ما بيع بدمياط فرشيد أكثر واردًا من دمياط»[١].

وفى القرن التاسع عشر يعرض لنا على باشا مبارك فى كتابه **صورة حية للحياة فى مدينة رشيد**، فيعدد مجال النشاط التجارى بها وما بها من أسواق ذات متاجر بلغ عددها ستمائة متجر بالإضافة إلى ثمانية عشر شادرًا للأخشاب وسوق للأسماك وكان يزدحم ميناؤها بالسفن الشراعية والبخارية وبكافة أنواع المتاجر للشحن والتفريغ، ويتجه بعضها فى البحر إلى الإسكندرية ودمياط وغيرهما والآخر يتجه داخل البلاد لتوزيع السلع على البلدان، لذا فكثير من أهلها ملاحون وتجار منتشرون فى كثير من البلاد، وأشار إلى كثرة أنوال نسيج القطن بها. وكان بها ثلاث عشرة معصرة زيوت واثنتين وخمسون طاحونة تديرها الخيل وطاحونة بخارية وعشرة وأبورات لضرب الأرز وتسع دوائر تديرها الخيل، وعشرة مخابز ومعمل لتفريخ الدجاج وآخر للصينى وورشة رخام ومصنع ورق ومحلج قطن ومعامل لتركيب الأدوية والشمع والعسل والروائح العطرية ونوه إلى كثرة الحرف هنا كالتجارة والدباغة والخياطة وانتشار الصيد وعرض للنشاط الزراعى بها[٢].

وقد بدأت مدينة رشيد فى التدهور منذ سنة ١٢٣٥هـ حيث أعاد محمد على حفر خليج الإسكندرية - ترعة المحمودية حاليا - وتحولت حركة التجارة تلقائيا مرة أخرى إلى الإسكندرية، وهاجر العديد من العائلات الرشيدية بها إلى الإسكندرية واستقرت بها.

التراث المعمارى :

تحتفظ مدينة رشيد بتراث معمارى يندر أن نجده فى مدينة أخرى، وهذا التراث الغنى الثرى يحق لنا أن نتجول فيه لنتعرف عليه :

المساجد :

ذكر بولوا أحد علماء الحملة الفرنسية فى دراسته عن مدينة رشيد (وفى المساء عندما ينادى المؤذنون الناس من فوق مآذنهم للصلاة، فليس ثمة ما هو أكثر روعة من منظر رشيد)[٣].

---

(١) الإسحاقى، أخبار الأول فيمن تولى مصر من أرباب الوزراء والدول، ص ١٧١.

(٢) على باشا مبارك، الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة، ص ١١، ص ٧٥.

(٣) وصف مصر ص ٣، ص ٢٢٨، ترجمة زهير الشايب مكتبة مدبولى ١٩٨٥م .

ومن مساجد رشيد الأثرية:

١ - مسجد زغلول قبل سنة ٩٨٣هـ/ ١٥٧٥م(١) .

أكبر مساجد رشيد وهو المسجد الجامع للمدينة وعلى مدخل المسجد مرسوم مملوكي بإجراء تجديدات به ولأهميته جرت به عمارة كبيرة وتوسعة سنة ١٠١٦ هـ/ ١٦٠٨م على يد أحمد بن الخواجا محمد الشهير بالرويعي كما أنشأ حوله مجموعة كبيرة من المباني.

وكذلك ساقية لإمداد مرافق الجامع بالمياه. وللمسجد مئذنتان واحدة شرقية أعيد ترميمها حديثا والأخرى غربية. والغربية قصفها الإنجليز فى عام ١٨٠٧ لأنه خرج من فوقها نداء الله أكبر حى على الجهاد لمقاومة الإنجليز أثناء احتلالهم المدينة، وأدت هذه المقاومة إلى انسحابهم وحصارهم للمدينة وقصفهم مئذنة هذا المسجد ومازالت هذه المئذنة شاهدًا تاريخيًا حيًا على انتصار أهل المدينة على الإنجليز. ولهذا يحظى هذا المسجد بأهمية خاصة لدى أهل رشيد وهو فى حالة سيئة حاليا إذ بدأ به مشروع الترميم فى عام ١٩٨٦ ثم توقف حاليا.

٢ - مسجد النور

يعرف هذا المسجد لدى أهالى رشيد بمسجد الشيد بالنور وهو من أقدم مساجد المدينة. وأما تخطيطه من الداخل فيتكون من أربع بائكات ذات عقود مدببة تقسم المسجد إلى خمسة أروقة وسقف المسجد من قباب ضحلة. ويؤرخ هذا المسجد قبل سنة ٩٨٥ هـ/ ١٥٧٧ م. وقد أجريت به تجديدات سنة ١١٧١ هـ/ ١٧٦٤ م(٢). وللمسجد مئذنة ذات دورة واحدة.

٣ مسجد الجندى :

هذا المسجد غير منتظم فى مساحته إذ إنه بنى على قطعة أرض غير منتظمة، وله ثلاثة مداخل: الرئيسى يفتح على قصبة المدينة، وهو من الداخل به ٣٩ عمودًا مختلفة الأشكال والأحجام وهذه الأعمدة مصطفة فى٣ بائكات تحمل عقودا مدببة وهى تقسم المسجد إلى أربعة أروقة ويتوسط المسجد صحن صغير ثبتت به مزولة لتحديد أوقات الصلاة.

والمسجد يرجع إلى ما قبل سنة ٩٩٤ هـ/ ١٥٨٦ م وقد أجريت به ترميمات عديدة أبرزها فى عام ١١٣٠ هـ/ ١٧٢١ م. وللمسجد مئذنة كانت قد تهدمت وأعيد ترميمها حديثا.

---

(١) مدن مصر ذات التبادل الحضارى (معمار رشيد) ص ٨٠، ص ٨١، ص ٢، دراسات أنجزتها جامعة القاهرة والمعهد الفرنسى لأبحاث التنمية ١٩٩٤ م.

(٢) المرجع السابق ص ٨١.

٤ - مسجد العرب :

يقع هذا المسجد على رأس الشارع الرئيسى برشيد وهو شارع دهليز الملك، الذى تطلق عليه وثائق رشيد (الشارع الأعظم) ويعرف حاليا هذا المسجد باسم العرابى، ومؤرخ بسنة ١٢١٩ هـ/١٨٠٤ م. حسب اللوحة الخشبية التى تعلو المدخل الشمالى للمسجد، وتحمل اسم الحاج خليل بن الحاج إبراهيم، غير أن وثائق المدينة التى ترجع إلى العصر العثمانى تثبت أن المسجد أقدم من هذا التاريخ بكثير وأن تاريخ ١٢١٩ هـ لا يعدو كونه تاريخ تجديدات قام بها الحاج خليل المذكور وسجله على اللوحة التى أعتمد عليها فى تاريخ المسجد، وقد دلت وثائق القرن ١١ هـ/ ١٧ م على إجراء ترميم للمسجد بدأ سنة ١٠٧٥ هـ/ ١٦٦٤ - ١٦٦٥ م. وانتهى سنة ١٠٧٧ هـ/ ١٦٦٦ ١٦٦٧ م.

٥ - مسجد المحلى :

يقع هذا المسجد فى وسط المدينة، وهو يطل على القصبة العظمى بالمدينة ومساحته غير منتظمة ويتوسطه صحنان صغيران وضريح للشيخ المحلى الذى ينسب إليه المسجد، وقد أرخه بعض الباحثين بأنه يرجع لسنة ٨٦٠ هـ/ ١٤٥٦ م وأجريت به إصلاحات وترميمات واسعة فى القرن ١١ هـ/ ١٧ م.

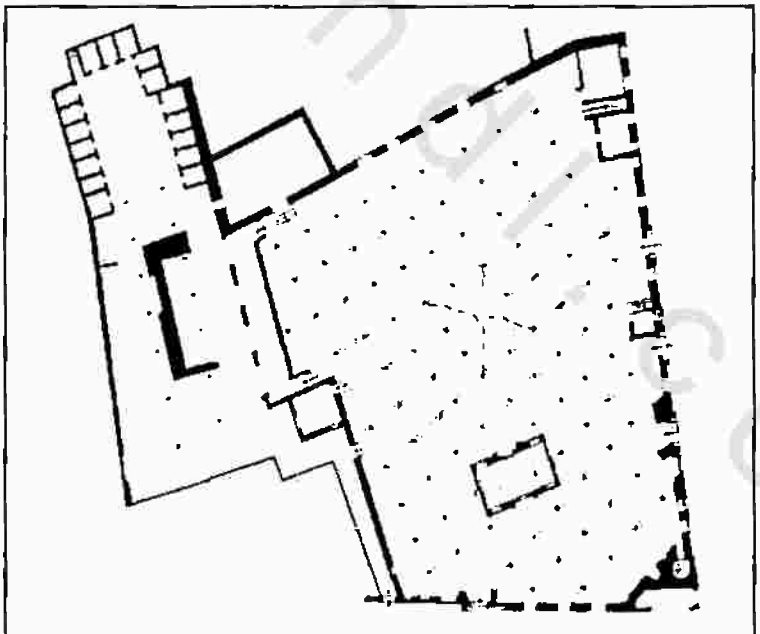

شكل رقم (١٣) : مسقط أفقى لمسجد المحلى بعد التوسعات - برشيد.

٦ – مسجد دومقسيس :

هو المسجد المعلق الباقى برشيد، ويتكون من دور أرضى يضم مخازن ودكاكين غطيت بأقبية متقاطعة، وتتقدمها سقيفة محمولة على أكتاف فى الجهة الغربية وعلى أعمدة فى الجهة الشمالية. ويقع باب المسجد فى الواجهة الجنوبية الغربية، ويصعد إليه بدرجات من لحجر. ويواجه باب المسجد باب آخر فى الحائط المقابل يؤدى إلى مصلى ملحق بالمسجد وينزل منه بدرج إلى الميضأه ويوجد حول المسجد سقيفة محملة على الطابق الأرضى ويعلوها سقف خشبى وذلك فى الجدارين الشمالى الغربى والجنوبى الغربى، والمسجد مقسم من الداخل إلى ثلاثة أروقة ويتوسط حائط القبلة المحراب، يتميز هذا المسجد عن باقى مساجد رشيد بجدرانه المغشاه ببلاطات القاشانى التى لم يبق منها كاملا سوى حائط القبله ويتخلل هذه البلاطات قطع من الرخام عليها آيات قرآنية وأحاديث نبوية، وتوقيعات لصناع ومجددين للمسجد. شيد هذا المسجد أحمد أغا دومقسيس سنة ١١١٤ هـ/ ١٧٠٢ م. ومهندسه هو مصطفى جورباجى والذى سجل اسمه على لوح رخامى تذكارى بالمسجد[1].

٧ – مسجد أحمد أبى التقى :

منشئ هذا المسجد هو قرضلى عثمان وقد بدأ إنشاء المسجد فى عام ١١٣٩ هـ/ ١٧٢٧ م، حيث تم الانتهاء من إنشاء الواجهات وشباك السبيل وسجل ذلك عليه، وتم عمل المبر فى عام ١١٤٢ هـ/ ١٧٣٠ م وكان الانتهاء من إنشاء المسجد فى عام ١١٤٣ هـ/ ١٧٣٠ م، والمسجد ألحق به سبيل مياه على غرار مسجد المحلى وكتاب لتعليم الأطفال وله مدخلان فى وجهتيه الشمالية الغربية والجنوبية الغربية.

٨ – مسجد العباسى :

يعتبر هذا المسجد من أجمل مساجد رشيد، ولعل ذلك يرجع إلى التناسب المعمارى الرائع فى مكونات واجهته والتى تتكون من قبة ذات ضلوع على اليمين يليها المدخل ذو العقد المدائنى الذى يوجد بين ريشتيه السفليتين دلايتان يشكلان ثلاثة عقود مدببة ثم شباك صغير على اليسار وخلف القبة تطل علينا المئذنة بطرازها الرشيدى المميز كل ذلك جعل المسجد ذا طابع معمارى يلفت انتباه زائر المدينة، والمسجد من الداخل يتكون من ثلاثة أروقة يفصل

---

(١) محمود درويش، عمائر رشيد الأثرية وما بها من التحف الخشبية، ص ١٦٦. رسالة ماجستير كلية الآثار، ١٩٨٩ م.

بينها بائكتان من عقود مدببة ومن أروع ما تبقى به من تحف سقف دكة المُبَلِّغ ذو الزخارف النباتية الرائعة وباب قبة الضريح المطعم بالعاج والصدف وأرخ أحد الباحثين المسجد بأنه يعود إلى القرن ١٢ هـ/ ١٨م[1]. ويوجد برشيد العديد من الزوايا والمساجد الصغيرة مثل مسجد الصامت وزاوية الباشا وزاوية الشيخ قنديل. ويوجد بها كذلك العديد من المساجد الأثرية غير المسجلة كمسجد الأدفينى..

المنازل :

تميزت منازل رشيد بطراز معمارى خاص بها سواء من حيث الزخارف أم التخطيط المعمارى وطريقة البناء وقد زخرت وثائق المدينة بأوصاف عدد ضخم من المنازل عند إجراء تصرفات قانونية شرعية عليها من بيع وشراء واستبدال وإيجار ووقف أو حصر تركة وحتى محاضر السرقة وغير ذلك من التصرفات كما تفيض هذه الوثائق بذكر المصطلحات الخاصة بمكونات هذه المنازل والتى مازالت باقية فى هذه المدينة وإلى الآن.

أثرت الأهمية التجارية لمدينة رشيد على التصميم المعمارى لمنازلها فكان الطابق الأرضى فى معظم الأحيان يستخدم لأغراض تجارية فى الغالب، كما استخدم لأغراض صناعية، ومن ثم فقد كان يؤدى دور الوكالة أو الشادر، ويتكون من صحن صغير تفتح حولها حواصل معقودة، أو من قاعة كبيرة مسقوفة بأقبية متقاطعة، ويوجد فى بعض الأحيان سلم بالصحن يؤدى إلى طابق علوى مثلما هو موجود فى منزل علوان والتوقاتلى، ويكون للوكالة أو الشادر مدخل خاص من الخارج بخلاف مدخل المنزل، مع ارتباط كل من الوكالة والمنزل بعناصر اتصال وحركة تختلف من معمار منزل لآخر، وأسفل المنزل يوجد عادة صهريج للمياه تحت الأرض ويعلوه سبيل مياه فى بعض الأحيان كما هو فى منازل رمضان، محارم، عرب كرلى، حسيبة غزال، مكى، البقراولى. ومن ثم فواجهة المنزل تحتوى على تلك الوحدات التجارية وعلى باب مستقل يؤدى إلى سلم يصعد منه إلى الدور الأول، وهو ما يطلق عليه دائما فى الوثائق «عقد سلم أول». إذ يوجد فى كثير من الأحيان عقد سلم ثان يؤدى إلى الدور الثانى وعقد سلم ثالث يؤدى إلى الدور الثالث وهكذا ويتكون الدور الأول من «دهليز» وهو عبارة عن مساحة مبلطة تطل عليها الحجرات، و«تخانة» ويقصد بها القاطوع بين المبانى و«فسحة» أو «ميدان» أو «وسط دار» وتستخدم هذه المصطلحات بمعنى واحد يكون به مقاعد للجلوس ويستخدم هذا الدور للرجال واستقبالاتهم، وبهذا الطابق الأول سلم ثان يؤدى إلى الطابق الأعلى الذى يتكون أيضا من وسط الدار وتخانات وأروقة أو حجرات أوْ قاعات ويكون فى

---

(١) محمود درويش، مرجع سابق، ص ١٦٣.

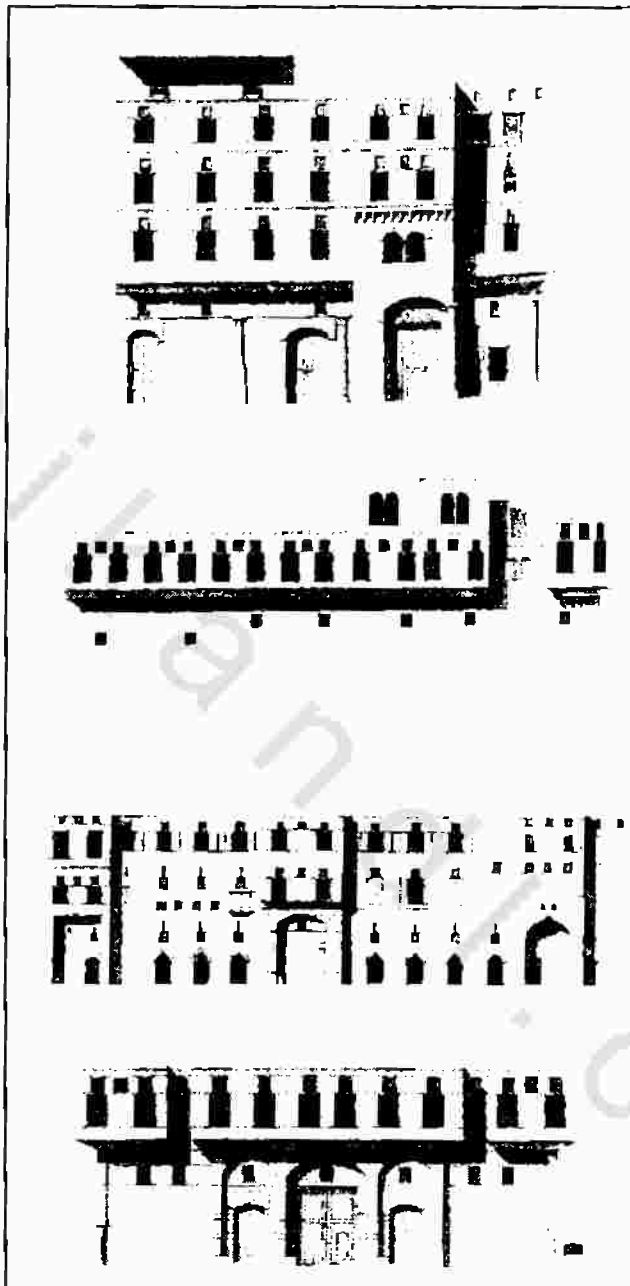

شكل رقم (١٤) منازل فى رشيد (عن وصف مصر).

الطابق الأخير من المنزل الحمام وفى الطابق الأوسط المطبخ فى حالة تكون المنزل من ثلاثة طوابق، ويحتوى الطابق الأخير فى بعض المنازل على سلم يؤدى إلى حجرة يطلق عليها الكشك أو القصر العالى أو الطيارة وهى تستخدم فى فصل الصيف للإقامة. وبعض هذه المنازل به عناصر معمارية وفنية فريدة من نوعها. وكل منزل من هذه المنازل يستحق أن يكون بمفرده موضع دراسة مستقلة، ففى منزل رمضان يصل سلم سرى من داخل الطابق الأول الطابق الثانى، ومن داخل هذه السلم يتم الوصول إلى طابق مسحور أسفل الطابق الأول، وذلك بطريقة خفية تعمدها معمار هذا المنزل، بل أوجد المعمار سلمًا إضافيًا يؤدى إلى الطابق الأول مباشرة بخلاف سلم المنزل الرئيسى، ناهيك عن العناصر المعمارية والفنية الزخرفية فى هذا المنزل وتمثل واجهته أروع واجهات المنازل بالمدينة من حيث التناغم المعمارى والفنى فى توزيع وحدات المنازل على الواجهة من الطابق الأرضى حيث الأبواب بعقوبها وزخارفها إلى الطابق الأخير بروشنه ومشربياته.

وفى منزل البقروالى استخدم المعمار حيلة رائعة للفصل بين طابق الاستقبال وباقى طوابق المنزل الخاص بأهله وذلك باستخدام دولاب دائرى من رفين يفتح فى جانب منه على وسط الدار بالطابق. وفى الجانب الآخر على سلم الطابق الثانى لينتقل من خلاله الطعام إلى الضيوف دون الحاجة إلى انتقال النساء إلى هذا الطابق لنقل الطعام. وهو هنا يؤكد عامل الخصوصية وهو من العوامل التى حرص عليها المعمار برشيد.

وفى منزل علوان وكذا فى منزل محارم استخدم المعمار بلاطات القاشانى فى تزيين جدران الطابق الأول وهذه البلاطات مزجت بين الزخارف المصرية المحلية والأندلسية الغربية وكذا العثمانية فى مزاوجة رائعة. وفى منزل جلال واميزونى نرى دور الفقه الإسلامى فى صياغة عمارة منازل رشيد فقد اشترك المنزلان فى حائط واحد، والحوائط المشتركة من الأمور التى شاعت فى المدن الإسلامية وقرر لها الفقهاء قواعد صارت أساسا يتعامل بها[1].

أوجد المعمار فى أعلى المنزلين مدخنتين لتصرف دخان مطبخى المنزلين، وهو هنا يحافظ على البيئة من التلوث ويرعى جاره، ورعاية حقوق الجوار من الأمور التى شكلت بوضوح منازل رشيد سواء واجهتها أو توزيع وحداتها من الداخل[2]. هذا السقف سقف زخرفى، إذ أن السقف الذى يعلوه هو السقف الحامل، والذى يمثل أرضية الطابق الأول علوى.

---

(١) خالد عزب، دور الفقه الإسلامى فى العمارة المدنية فى مدينتى القاهرة ورشيد فى العصرين المملوكى والعثمانى، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٥ م.

(٢) خالد عزب، دور الفقه الإسلامى فى العمارة المدنية فى مدينتى القاهرة ورشيد فى العصرين المملوكى والعثمانى، رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٥ م.

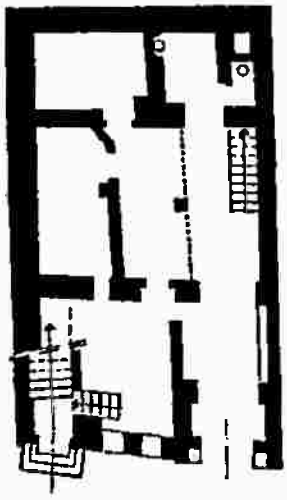

مسقط أفقى الدور الأرضى

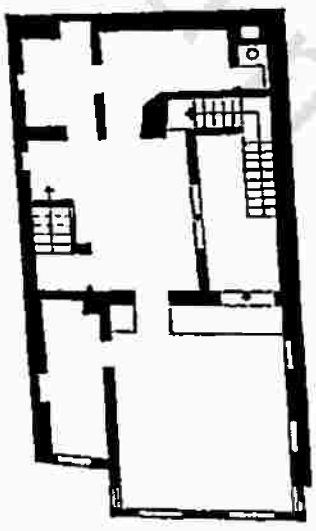

مسقط أفقى الدور الثانى

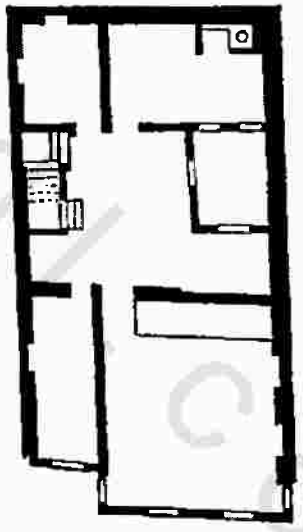

مسقط أفقى الدور الأول

شكل رقم (١٥) منزل علوان بيه – رشيد.

الوجهة الغربية

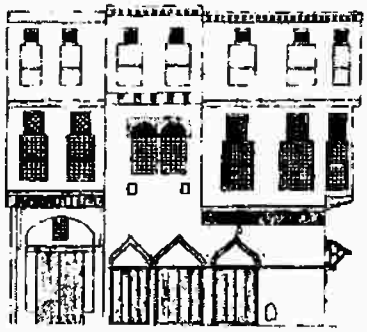

الواجهة الشمالية

تابع شكل رقم (١٥) منزل عصفور.

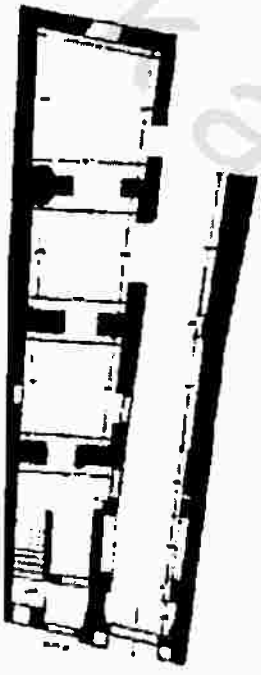

مسقط لفقى الدور الأرضى

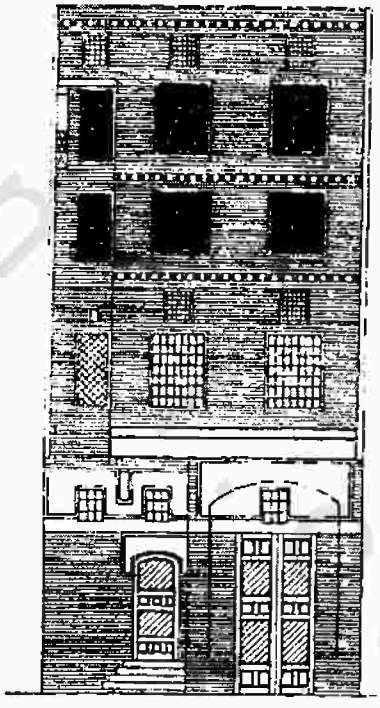

الواجهة الرئيسية

شكل رقم (١٦) منزل ثابت.

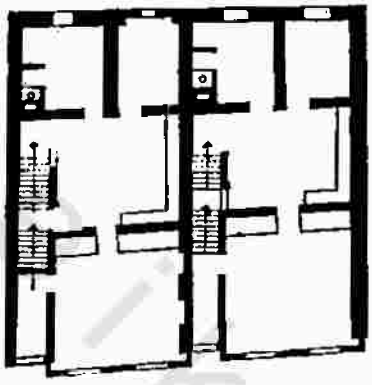

مسقط أفقى الدور الأول

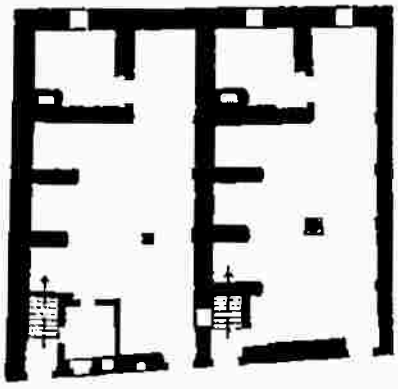

مسقط أفقى الدور الأرضى

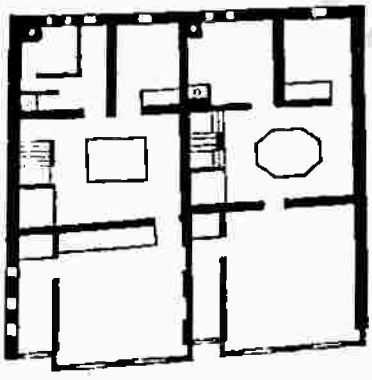

مسقط أفقى الدور الثالث

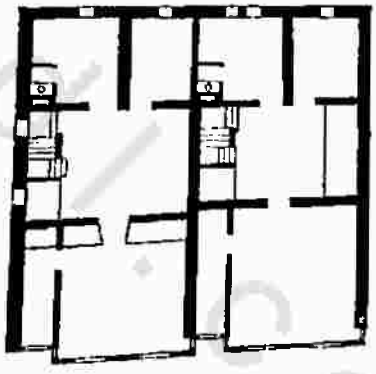

مسقط أفقى الدور الثانى

شكل رقم (١٧) منزل الميزونى - رشيد.

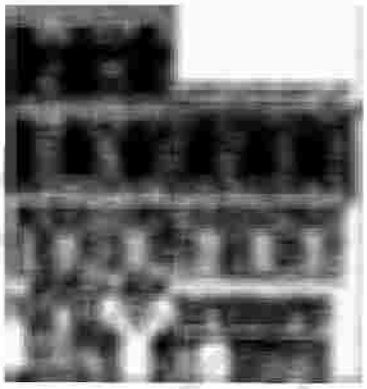

الواجهة القبلية

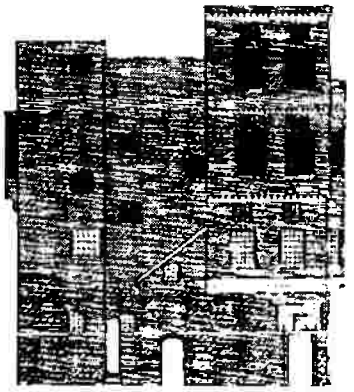

الواجهة الشرقية

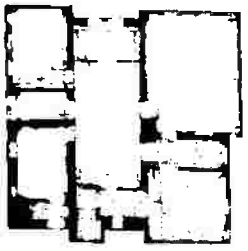

مسقط أفقى الدور الثانى

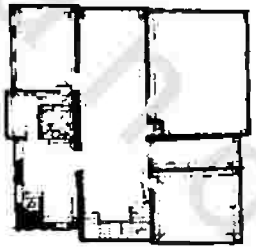

مسقط أفقى الدور الأول

مسقط أفقى الدور الارضى

شكل رقم (١٨) منزل عرب كلى رشيد.

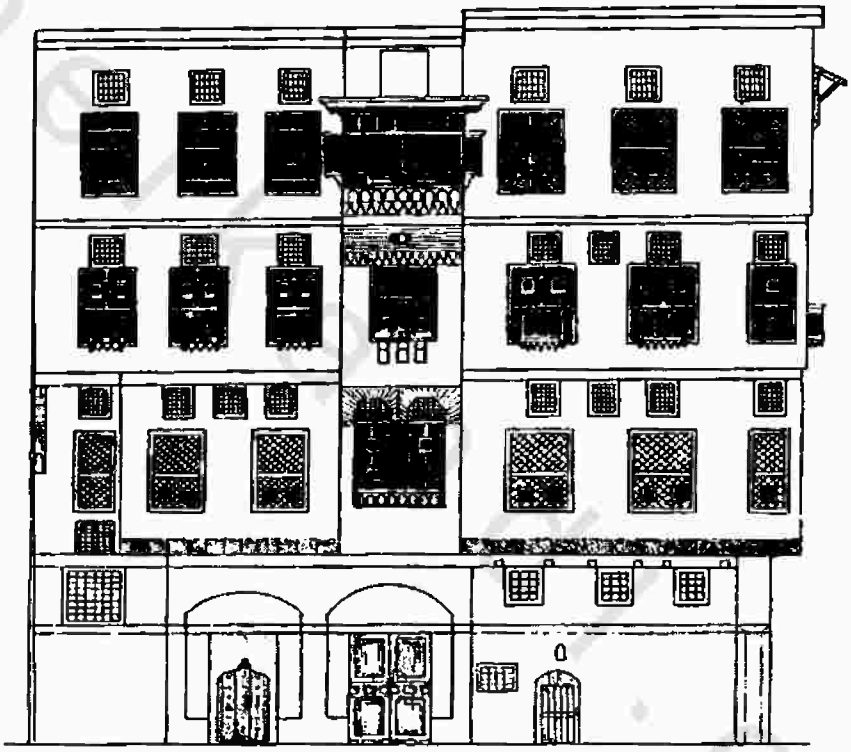

شكل رقم (١٩) : منزل رمضان بك – الواجهة الشمالية – رشيد.

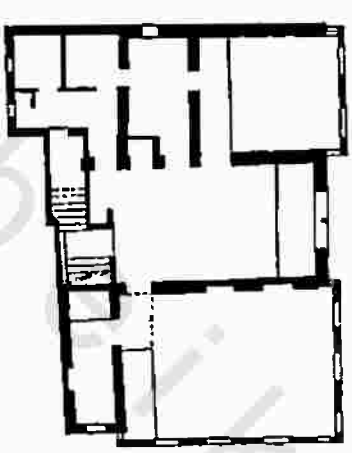

مسقط أفقى الدول الأول

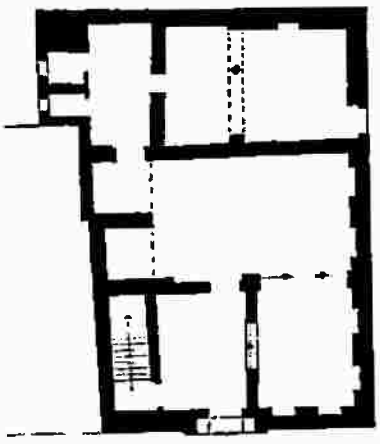

مسقط أفقى الدورالأرضى

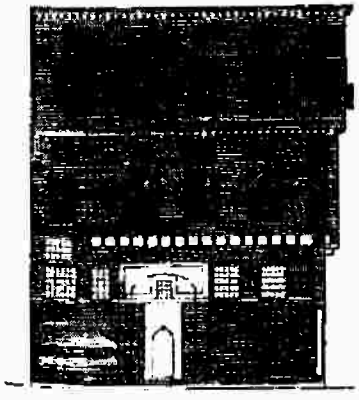

الواجهة الرئيسية

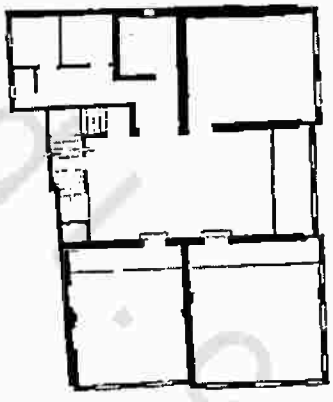

مسقط أفقى الدورالثانى

شكل رقم (٢٠) : منزل عثمان أغا الأماصيلى – رشيد.

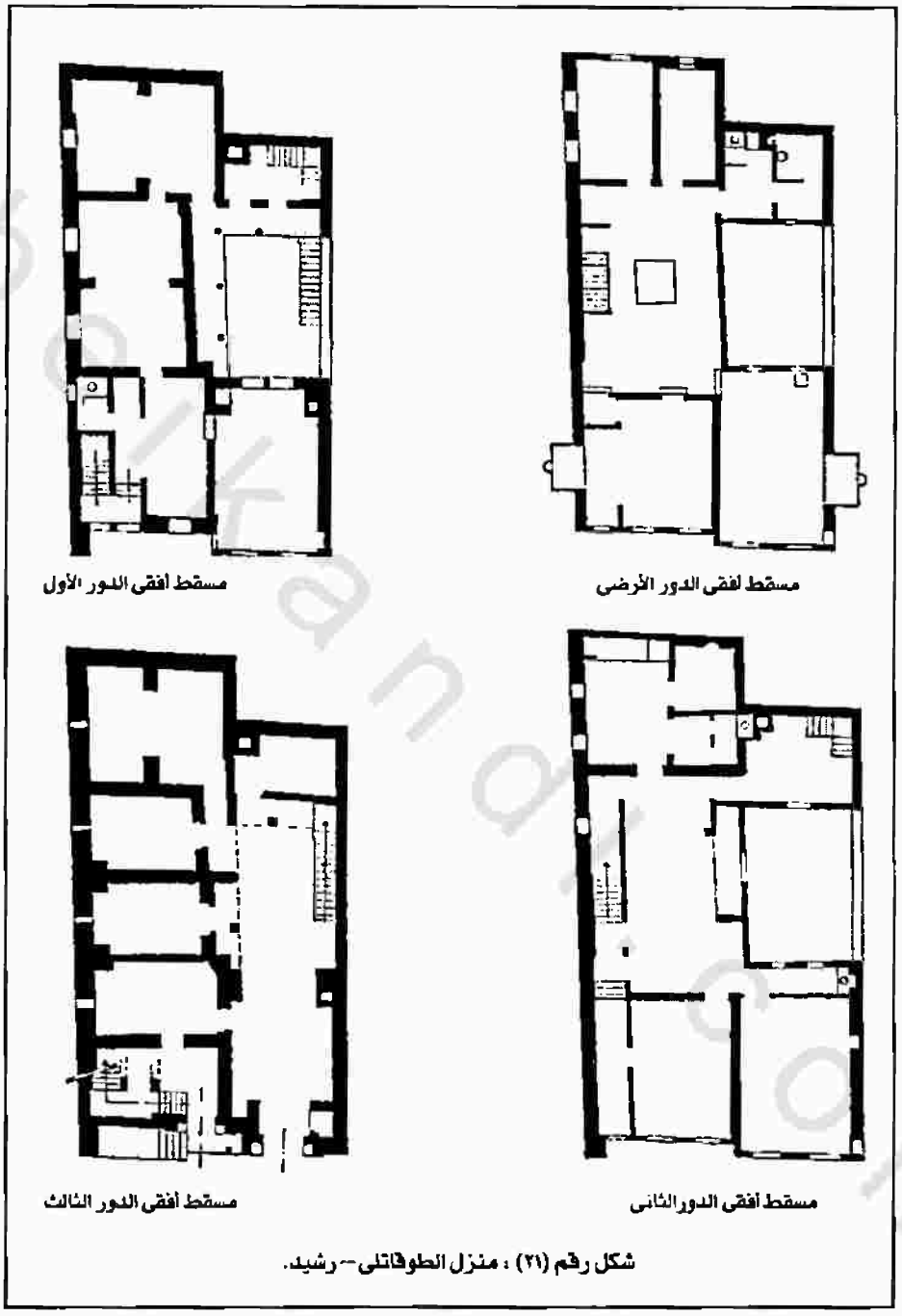

شكل رقم (٢١) : منزل الطوفاتلى – رشيد.

ويختلف منزل الأمصيلى عن المنازل الباقية بمدينة رشيد حيث إن صاحبه كان يعمل فى حامية المدينة وبالتالى ليست هناك حاجة لاستغلال الطابق الأرضى بصورة تجارية فحوله إلى قاعة استقبال تطل على وسط الطابق وهذه القاعة ذات سقف من مستويين المستوى الأول زخرفى ويتكون من ألواح خشبية شكل عليها بسدائب من الخشب أشكال أطباق نجمية، وفى كندات الأطباق زخارف نباتية، وفى وسط السقف صره بارزة شكلت زخارفها على أشكال نباتية مفرغة بالحفر.

الحمامات :

كانت الحمامات تؤدى وظيفة صحية كما كانت تؤدى فى نفس الوقت وظيفة دينية وأخرى ترفيهية، حيث كانت تتم بها بعض مراسم احتفالات الخطبة والزواج والختان، وتعتبر الحمامات أيضا من المنشآت التى تدر ربحًا منتظما وفيرًا، ومن ثم فقد حرص أصحاب الثروات على إنشائها ووقفها وقفا أهليا أو خيريا على أغراض البر والتقوى. ويتكون الحمام الرشيدى معماريا من واجهة بها باب يؤدى إلى الداخل، وباب يؤدى إلى المساكن التى تعلوه إن وجدت، وآخر يؤدى إلى المستوقد المُعَدّ للتسخين وبئر المياه ويعلوه الساقية وغير ذلك، ويؤدى باب الحمام إلى ممر يدخل منه إلى مسلخ وهو المكان الذى ينسلخ فيه الإنسان من ملابسه ويتكون هذا المسلخ فى الغالب من دور قاعة قد تتوسطها فسقية، يحيط بها أربعة أواوين، بها كثير من حجرات لاستراحة ميسورى الناس، ويسقف المسلخ من الخشب يتوسطه شخشيخه حيث يكون هذا المكان فى درجة حرارة عادية ليستقبل المستحم بعد خروجه من البيت الأول ليرتدى ملابسه ويخرج إلى خارج الحمام، ويوجد بالمسلخ بابان يؤدى أحدهما إلى ممر به دورات المياه. والبيت الأول (بيت حرارة أول) ويؤدى الآخر إلى مستوقد الحمام، ويتكون البيت الأول من إيوان واحد مخصص للاستراحة بعد الاستحمام حتى لا يخرج المستحم دفعة واحدة إلى الهواء العادى بالمسلخ وفى حمام عزوز الحمام الوحيد الباقى الآن فى رشيد يتكون البيت الأول من إيوانين ونجد فى هذا المكان بابا يؤدى إلى الجزء الثالث من الحمام ألا وهو بيت الحرارة (بيت حرارة ثان) ويتكون فى المعتاد من دور قاعة مثمنة يتعامد عليها أربعة أواوين يفتح منها ومن الأركان الأربعة الأخرى المكملة للمثمن أبواب تؤدى إلى حجرات (خلوات) ومغاطس، وسقوف البيت الأول والثانى عبارة عن أقبية يتخللها فى غالب الأحيان شرائح من الزجاج للإضاءة مع حفظ الحرارة داخل المبنى. ذكرت وثائق مدينة رشيد التى ترجع إلى العصر العثمانى العديد من الحمامات فى معاملات مختلفة من وقف وايجار ودعاوى لإصلاحها ومحاسبات لترميمها أو شكاوى ومن هذه الحمامات المندثرة حمام يوسف القيودان حمام الخواجا عباد الله، حمام

النحاس، حمام الشيخ محمد البسيونى، حمام سليمان أغا البستنجى، حمام المالح، حمام ملكة خاتون[1].

المنشآت الصناعية :

كانت مدينة رشيد ثغرا تجاريا ومدينة صناعية هامة فى العصر العثمانى فقد تعددت الأنشطة الصناعية بها مثل صناعة الزيوت وما يستلزمها من معاصر وسيارج، وقاعات الحياكة وأنوال النسيج وقاعات صناعة السكر ومضارب الأرز ومعامل الطوب ومعامل الكتان ومعامل الشمع ومعظم هذه المنشآت اندثرت ولم نستطع الاستدلال عليها إلا من خلال كبار السن من أهل المدينة أو من أسماء بعض شوارعها كشارع معمل الشمع، أو من خلال سجلات المحكمة الشرعية برشيد أو من حجج الوقف، وإلى وقت قريب كان فى المدينة منشأة صناعية فريدة فى نوعها وهى معمل تفريخ الكتاكيت بطريقة صناعية ذات تقنية بسيطة يمكن إعادة استخدامها اليوم. وهو معمل الكيلانى وقد شاهدته بنفسى وقمت بتصويره وسأنشر دراسة مستقلة خاصة به فى المستقبل القريب، وللأسف الشديد فقد هدم هذا المعمل وأصبح فى ذاكرة التاريخ وباقى منشآت المدينة التى اندثرت. والمنشأة الصناعة الوحيدة الباقية هى طاحونة أبو شاهين. وهى طاحونة ذات مدارين من الخشب تميزت باستخدام المعمار فيها العقود كحليات معمارية وكعنصر لتخفيف الضغط عن الحوائط كما هو الحال فى جلستى الطحان، وألحق بالطاحونة أصطبل ومخازن.

المنشآت التجارية :

اندثرت معظم المنشآت التجارية بالمدينة ولم يتبق منها سوى وكالة على باشا بالشارع الأعظم وفندق داود باشا وكلاهما للأسف الشديد غير مسجل فى عداد الآثار وفى طريقهما للاندثار مثل باقى الوكالات الأثرية التى اندثرت، ومن أعظم هذه الوكالات المندثرة، وكالة الباشا، أنشأ هذه الوكالة محمد باشا الصوفى الذى تولى حكم مصر من سنة ١٠٢٠ هـ، إلى ربيع الأول ١٠٢٤ هـ/١٦١١ م - ٧ إبريل ١٦١٥ م[2]. وقد كانت هذه الوكالة موجودة إلى وقت قريب حيث كانت مسجلة فى عداد الآثار الإسلامية بهذه المدينة، تحت اسم وكالة الباشا ولكنها أخرجت من عداد الآثار فى الأربعينات من هذا القرن. لنفقد الوكالة الأثرية الثانية فى الوجه البحرى بعد وكالة السلطان الغورى بمدينة المحلة الكبرى.

---

(١) مدن مصر ذات التبادل الحضارى، مرجع سابق ص ٣٦، ٣٧، ٤٠، ٣٩، ٣٨.

(٢) أحمد شلبى بن عبد الغنى، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات ص ١٣٣، ١٣٤ تحقيق د. عبد الرحيم عبد الرحمن، القاهرة ١٩٧٨ م.

المنشآت الحربية :

احتفظت مدينة رشيد ببرجها الحربى الذى يبعد عن المدينة إلى الشمال بنحو ٦ كم وهذا البرج بناه الظاهر بيبرس ثم جدده السلطان قايتباى تجديداً شاملا فى أواخر القرن ٩ هـ/١٥ م، كما جددت الحملة الفرنسية هذا البرج وأجرت به ترميمات شاملة كشفت عن حجر رشيد الشهير المحفوظ حاليا بالمتحف البريطانى. هذا البرج ذو سور مستطيل به فتحات لوضع المدافع وأربعة أبراج صغيرة فى أركانه الأربعة ويتوسط ضلع السور الجنوبى مدخل البرج وفى وسط فنائه يوجد المسجد والصهريج ومخازن السلاح وأماكن إقامة الجند. ولم يتبق من سور رشيد سوى بوابة أبو الريش فى الجزء الشمالى الغربى من المدينة، وعلى طول الشاطئ من رشيد إلى الإسكندرية توجد مجموعة من القلاع الصغيرة تعود إلى عصر أسرة محمد على من أبرزها قلاع العبد، الجزاير، النوى، العلايم، الشيخ . الخ.

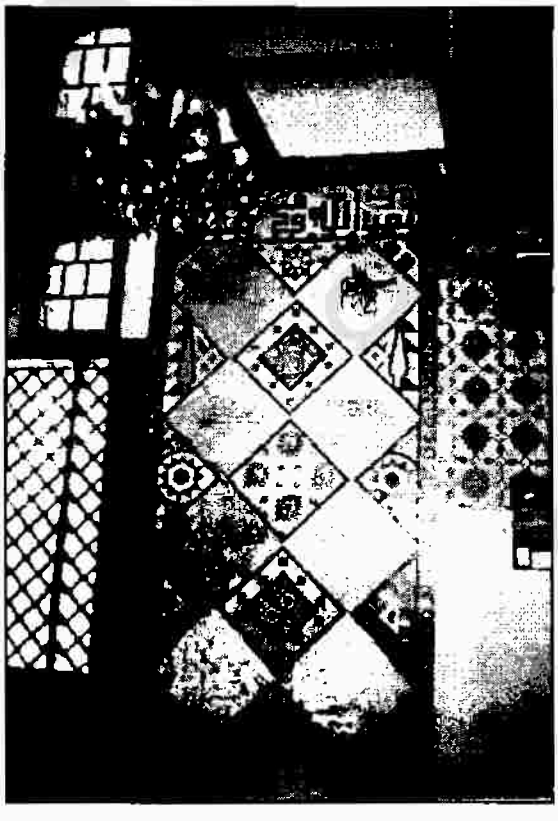

صورة رقم (٤٣) : مسجد دومقسيس (رشيد).

صورة رقم (٤٤) : حمام عزوز (رشيد).

صورة رقم (٤٥) . برج قايتباى (رشيد).

صورة رقم (٤٦) : مسجد أبو مندور (رشيد).

صورة رقم (٤٧): جامع زغلول (رشيد).

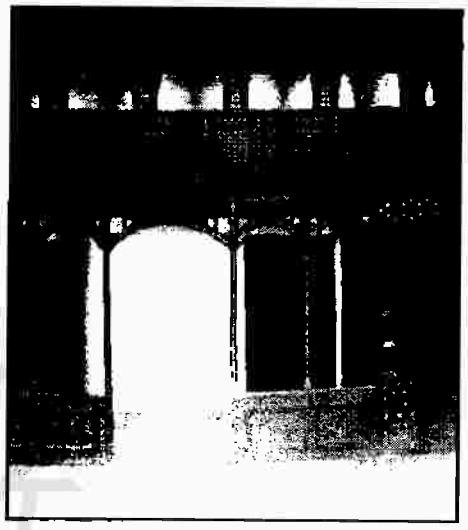

صورة رقم (٤٨): أغانى منزل الأمصيلى (رشيد).

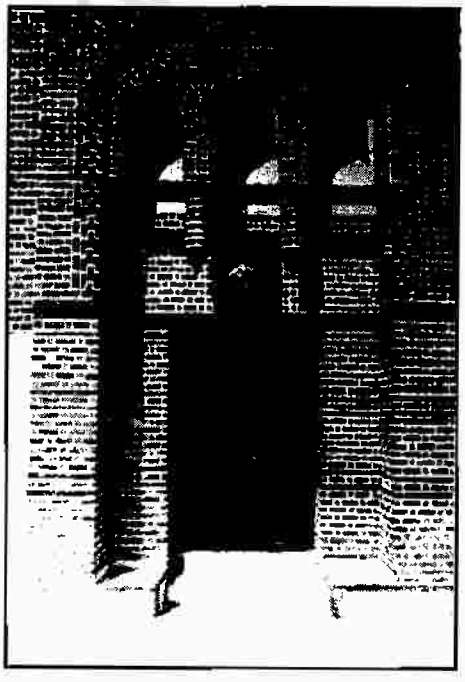

صورة رقم (٤٩) : مسجد العباسى (رشيد).

العمارة الإسلامية فى عكا

(يا خوف عكا من هدير البحر) هكذا قيل ولا أحد يعرف من هو القائل وفى أية مناسبة قيل هذا الكلام الذى ذهب مع الأيام مجرى الأمثال، لكن جولة ميدانية قصيرة فى حوارى عكا وعلى شوارعها وشواطئها وفى أسواقها، ولقاء أهلها تؤكد فعلا أن المدينة التى هزمت نابليون لا يمكن أن تخاف من هدير البحر!.

هزمت نابليون لا يمكن أن تخاف من هدير البحر!.

فالبحر عند العكى هو مجرى الحياة.. تماما كجريان الدم فى الشريان فيعطى الحياة هكذا البحر بالنسبة للعكى وخاصة أرباب أكثر من ٢٥٠ أسرة تعتاش على صيد الأسماك

حين تأخذك قدماك إلى السوق المركزى فى عكا وهو أحد أكبر الأسواق العربية المزدهرة والوحيد الذى حافظ على ملامحه القديمة، وهو يبعث فيك حنينا إلى أيام عكا فى حلتها الإسلامية قبل وقوع كارثة ١٩٤٨.

يرجع المؤرخون تأسيس عكا إلى الألف الثالثة قبل الميلاد على يد القبائل الكنعانية المعروفة باسم (الجرجاشيين) التى أطلقت على المدينة اسم (عكى) أى الرمل الحار وجعلت منها مركزا تجاريا هاما، وفى العهد الرومانى والبيزنطى امتازت المدينة بكونها أهم مرافئ حوض البحر المتوسط.

وفى عام ٦٣٦م وصل الفاتحون المسلمون بقيادة شرحبيل بن حسنة إلى عكا، وفى عهد معاوية الذى تولى ولاية بلاد الشام فى عهد الخليفة عثمان بن عفان وضعت نواة الأسطول الإسلامى حيث بنى حوض لبناء السفن. وحقق هذا الأسطول انتصارًا فى معركة ذات الصوارى الشهيرة.

فى عام ١١٠٤م سيطر الصليبيون على المدينة إلى عام ١٢٩١م حيث استبدل الهلال بالرايات الصليبية بعد أن حررها السلطان المملوكى البحرى الأشرف خليل، وفى العهد العثمانى استعادت عكا قسطا من أهميتها. لكن نهضتها الكبيرة جاءت فى عهد الشيخ ظاهر العمر الزيدانى الذى جاء من الحجاز إلى فلسطين.

يعتبر تراث عكا المعمارى شاهدا على هوية المدينة. وأبرز آثار المدينة المعمارية تعود إلى أحمد باشا الجزار، الذى شيد العديد من المنشآت أبرزها مسجده.

مسجد الجزار:

شيد هذا المسجد على الطراز العثمانى للمساجد، وأجمل ما فى هذا المسجد قبته التى تشع على المدينة بمجملها بلونها الأخضر. وفى المسجد الكثير من العناصر الأثرية الهامة منها: الساعة الشمسية، وصهاريج المياه، وفى صحنه ضريحان أحدهما لأحمد باشا الجزار، وحول

الصحن أروقة سقفت بقباب ضحلة ترتكز على أعمدة رخامية، وفى باحة المسجد كانت تعقد المحكمة الشرعية لعكا. كما شيد أحمد باشا الجزار المدرسة الأحمدية التى خصص لها ٤٥ خلوة للطلاب، وأغلقت هذه المدرسة فى عام ١٩٤٨.

ومن مساجد عكا الأثرية مسجد الزيتونى الصادق، ومسجد سنان باشا، ومسجد الميناء، ومسجد الرمل، ومسجد اللبابيدى.

صورة رقم (٥٠)
مسجد أحمد باشا الجزار - عكا.

حمام الباشا:

يعد حمام الباشا من أشهر معالم عكا، وهو حمام كبير فخم، بناه أحمد باشا الجزار عام ١٧٩٥ تقريبا. أقيم هذا الحمام على طراز الحمامات الإسلامية، فلا توجد له نوافذ، إنما يستمد الضوء من سقفه المقبب. عند مدخل الحمام نجد العديد من الغرف المخصصة لخزن متعلقاته. ومنها الحطب الذى يستخدم فى تسخين المياه، أما سلسلة قاعاته، فهى الشذروان التى تعد أول ما يقابله الداخل إلى الحمام، وهى قاعة الاستراحة والاستقبال، فضلا عن وظيفتها الاجتماعية الترفيهية، ففيها يخلع المستحم رداءه عند الدخول، ويرتديه عند الخروج.

كان من المألوف فى هذه القاعة جلوس النساء فيها وقد خضبن رؤوسهم بالحناء وعقدن حلقات رقص حول النافورة التى تتوسط القاعة وتقذف الماء البارد على الجالسين.

قاعتا الاستحمام:

يقود إليهما ممر ضيق من الشذروان، وهما أعلى حرارة من القاعة الأولى، إذ تحويان أجرانا رخامية وصنابير للمياه الساخنة والمياه الباردة، ويبقى فيهما عادة المستحمون الذين لا يتحملون ضغط جو غرفة البخار التى تليهما.

قاعة البخار:

وهى القاعة الأخيرة فى سلسلة قاعات هذا الحمام، وهى ذات بلاط ساخن يعرف ببلاط النار، يضجع عليه المستحمون طلبا للشفاء من بعض الأمراض أو طلبا للنظافة التامة.

ظل هذا الحمام يقدم خدماته للجمهور حتى مايو ١٩٤٧، حينما فجرت عصابة (ايتسل) وهى إحدى المجموعات الإرهابية اليهودية من سجن القلعة القريبة من موقعه لإخراج بعض السجناء

اليهود فأصيب بأضرار. أغلق الحمام بعد هذه الحادثة، حتى أعيد افتتاحه عام ١٩٥٤ ليتحول إلى متحف محلى للآثار والفنون، وكان من المقرر أن يضم بين جناحيه معرضا للفن الإسرائيلى المعاصر، إلا أن ذلك لم ينفذ. فى عام ١٩٥٨م أقيم فيه معرض تحت عنوان (المواطنون العرب فى بلادنا) لاقى نجاحا كبيراً، فبقيت بعض هذه المعروضات فيه، وتحولت إلى معرض دائم وعرض فى قاعاته أيضا بعض الآثار المكتشفة فى حفريات عكا والمناطق المجاورة لها.

الحمام الشعبى:

شيد هذا الحمام محمد الشعبى، الذى كان أحد أثرياء قرية شعب، وكانت له أملاك كثيرة فى عكا، يدخل المستحم فى هذا الحمام إلى قاعة واسعة لخلع ملابسه العادية وارتداء ملابس الحمام، وفى هذه القاعة مصاطب للاستراحة وتعلوها قبة كبيرة ذات فتحات مغطاة بالزجاج الملون.

تلى هذه القاعة قاعات الاستحمام وقاعة البخار. وهذا الحمام مغلق.

حمامات عكا مثل باقى حمامات المدن الإسلامية التى لها نظام عمل يكاد يتشابه ووظائف للعاملين فيها متشابهة، إذ كانت للحمام أوقات محددة لاستقبال جمهور المستحمين، بعضها للنساء والأخرى للرجال.

*** تحصينات عكا:**

تحصينات عكا لها تاريخ عريق فنجد لها صدى على نقوش جدار معبد الكرنك الفرعونى. وزاد اليونانيون فى تحصينات المدينة، فبنوا أسوارها فى القرن الرابع قبل الميلاد. وأعيد تجديدها فى عهد الرومان.

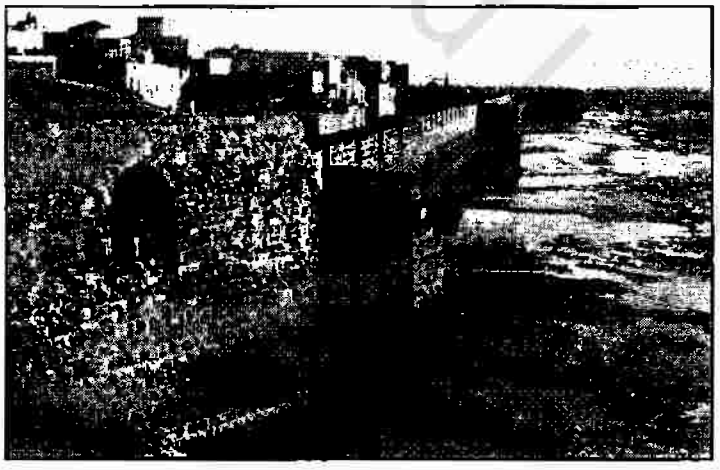

صورة رقم (٥١): عكا - سور المدينة القديم.

فى زمن الحكم الإسلامى زاد عهد الملك بن مروان وهشام بن عبد الملك فى تحصينات المدينة، التى تحولت فى عهد العباسيين إلى ثغر مهم لصد عدوان الرومان، كما زاد فى هذه

التحصينات أحمد بن طولون بعد ضمه الشام لمصر، وانتزع الصليبيون عكا، ودعموا تحصيناتها خصوصا بعد سقوط قلعتها المنيعة فى أيديهم.

أكبر عمارة حربية جرت فى عكا، كانت على يد الشيخ ضاهر العمر، الذى فرض نفوذه على المدينة والمناطق المجاورة لها فى عام ١٧٤٤، فبنى سور عكا الحالى الذى يحيط بالمدينة القديمة إحاطة السوار بالمعصم.

جعل ضاهر العمر للسور بوابتين رئيسيتين، واحدة فى جنوبه الشرقى على بعد مئة متر داخل البوابة الحالية والأخرى فى شماله إلى الشرق من قصره، كانت الأخيرة تعرف ببوابة السراى أو بوابة السباع. كل أسوار عكا مبنية من الحجر البازلتى، أسود اللون الممتاز. والحجر الجيرى. تمتد الأسوار من باب البرخن جهة البحر عند برج (قبو برج) وتنتهى عند برج الكومندار فى أقصى الشمال الشرقى للمدينة القديمة، وهذا البرج هو أقوى أجزاء السور، كان صموده يقرر مصير المدينة فى مختلف المعارك، أما الأسوار البحرية فتنقسم إلى السور الغربى والجنوبى ويقع الأول بين برج كريم فى شماله وبرج السنجق حيث أقيم الفنار عليه، ويتوسطهما برج الحديد.

يمتد السور الجنوبى بين برج السنجق وباب البر، وكان يوجد بالقرب من مخازن البارود التى أصابتها قذائف أساطيل الدول الأوربية أثناء هجومها على المدينة فى عهد إبراهيم باشا محمد على، ما أدى إلى مقتل الكثير من جنوده وتدمير ما جاورها من سور المدينة. وبسبب أهميتها الاستراتيجية من حيث موقعها وكونها عاصمة له، اهتم أحمد باشا الجزار، منذ بداية حكمه فى نهاية القرن الثامن عشر، ببناء أسوار لمدينته امتازت بعلوها وسمكها. وفى موازاة السور الخارجى بنى الجزار سورًا داخليا، يفصل بينهما خندق عريض عميق جدا، كانت مياه البحر تفتح عليه لمنع الغزاة من اقتحام المدينة.

بذلك شكل السور الخارجى المزود بمرابض خاصة للمدفعية ومستودعات الذخيرة والمؤن خط الدفاع الأول، والسور الثانى خط الدفاع الثانى فى حال سقوط دفاع الخط الأول، يتكون السور من الناحية الإنشائية من جدارين متوازيين طمرت الهوة بينهما بالطين والأحجار بعرض عشرة أمتار. هذا ما استهلك جهدا ووقتا كبيرين.

تيقن أحمد باشا الجزار كم كانت جهوده فى تحصين عكا وبناء أسوارها الضخمة مبررة، عندما جاء الامتحان الأصعب، متمثلا فى حصار نابليون بونابرت لمدينته فى ٢٠ مارس ١٧٩٩، وانتهى بانسحاب الأخير من بلاد الشام وعودته إلى مصر مهزوما.

واليوم تشكل أسوار عكا أحد أهم مقوماتها الأثرية وجاذبيتها السياحية. وبإمكان الزائر أن يسير مسافة على ظهر السور ويشرف على البحر وأحياء المدينة، ويرى مدافع أحمد باشا الجزار لا تزال منصوبة.

العمارة الإسلامية فى حلب

حلب لؤلؤة وضاءة فى جبين الأمة، وهى من أقدم مدن العالم، لا تزال مزدهرة زاخرة بالحياة. وإن جمالها ليزداد على مر الأيام والأزمان، تقع حلب على مفترق الطرق التجارية الكبرى، وعلى حدود البادية وتمتاز باحتفاظها بكنوزها الأثرية الإسلامية.

تسمية المدينة:

وردت حلب فى عدد كبير من النصوص الأثرية، ففى لارساو اسمها الآن سنكرة أثران يرجع عهدهما إلى ٢٠٣٦ – ٢٠٤٧ ق.م جاء فى الأول: «إلى عشتار الحلبية أناوردسين ملك لارسا» وجاء فى الثانى «إلى عشتار الحلبية: ابنة البكر»، والرقم الأثرية تذكر حلب بأسماء متقاربة فى اللفظ: ففى الآثار المصرية تذكر باسم «حُلبُو» و «حلب كو» و«حِلبون» وفى الآثار الحيثية تذكر باسم «حلب» و«حلباس» و«حالا اب».. الخ.

ويعتقد عبد الفتاح رواس قلعة جى أن مدلول كلمة حلب لا يخرج عن كونه مكان التألب والتجمع أو مكان القلب وعلى هذا تكون الكلمة:

١ – إما مركبة من كلمتين، أ، حل وتعنى نزول القوم وهو نقيض الارتحال ولها المدلول نفسه فى العبرية إذا أبدلت اللام نونا وهو إبدال معروف فى العربية وسائر اللغات السامية، وفى البابلية لفظة قريبة من حل هى (إلى) وتعنى المدينة، (ومثلها فى الأكدية «ألو» وفى اللفظتين أبدلت الحاء همزة)، ب – لب وتعنى التألب والتجمع، والقلب، وقد وردت فى العبرية والسريانية والأكدية بمعنى القلب.

وعلى هذا يكون معنى حلب هو مكان التجمع والتألب أو مكان القلب وكانت حلب مكان القلب والتجمع بين مارى وإيبلا وكركميش ومابوغ واوغاريت واراسا وكانس وأرابا، وكانت المركز الدينى الأول وقبلة المدن الأخرى بمعبودها الشهير الإله حدد، والمركز التجارى الأكثر أهمية.

٢ – أنها تحمل معناها وتركيبها الأصلى فقد جاء فى القاموس المحيط: حلَبَ القوم حَلْبًا وحلوبًا اجتمعوا من كل وجه. وقاموس اللغات العربية القديمة (السامية) غير منقطع عن قاموسها الجديد، وعلى هذا تكون أيضا بمعنى التجمع فهى الواسطة بين مخاضات الفرات والبحر، وبين ممرات طوروس وجنوبى سورية وطريق مصر كما أسلفنا[1]..

---

(١) عبد الفتاح رواس قلعة جى، حلب القديمة والحديثة، ص ٢١ – مؤسسة الرسالة. دمشق.

إن أقدم ذكر لحلب يعود إلى ما قبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، وفى عهد ريموش بن سارغون الأكادى ٢٥٣٠ – ٢٥١٥ ق.م، مؤسس أول إمبراطورية سامية فى الشرق، لقد استولى ريموش على حلب وأسر ملكها أو شومكال. وكانت حلب آنذاك مدينة مزدهرة قوية[1].

حلب عبر العصور :

كانت حلب عاصمة مملكة يمحاض الأمورية فى فاتحة الألف الثانى ق.م، وهى من أعظم ممالك الهلال الخصيب. وكانت لملوك حلب سطوة كبرى تشبه سطوة ملوك السلالة الأولى البابلية. وقد أرسلت مملكة حلب جيوشها كثيرة العدد لمساعدة الملك البابلى المشهور حمورابى. وعقدت معاهدات صداقة بين حلب وبابل وماري (تل الحريرى حاليا على الفرات قرب البوكدال). ويدلنا على سطوة مملكة يمحاض وقوة سلالتها الأمورية الحاكمة، أن عشرين ملكا كانا تابعين وخاضعين لها.

وهاجم الحيثيون «حلبًا» فى منتصف القرن الثامن عشر ق.م فقاومت هجومهم وانتصرت عليهم بادئ ذى بدء، ولكنها ما لبثت أن خضعت إليهم، ودخلها الملك مورشيل الأول فاتحا، وخربت تخريبا شنيعا انتقاما لما أبدته من مقاومة، ونفى عدد من سكانها إلى حاثوشا (عاصمة الحيثيين)، وقتل كثير من أبنائها. وظلت تحت نير الحيثيين حتى منتصف القرن السابع عشر إذ استعادت استقلالها عنهم، ولكنها ما لبثت أن خضعت للميتانيين الذين حكموها حتى سنة ١٤٧٣ ق.م واستولى عليها بعد ذلك المصريون الفراعنة لفترة قصيرة. وكانت فى القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م تقع تارة بيد الحيثيين وتارة أخرى بيد الميتانيين. ولكن الفاتح الحيثى شيبلوليوما فتحها وأصبحت مملكة ذات أهمية يحكمها ملوك من السلالة الحيثية الكبرى، وقد خلف ملكها تليبينو ابنه تلمى شروما، وبقيت المملكة الحلبية تحت السلطة الحيثية حتى سنة ١٢٠٠ ق.م. إذ انهارت المملكة الحيثية تحت ضربات الشعوب الآتية من الشمال والتى سميت بـ (شعوب البحر).

أصبحت حلب قاعدة لمملكة صغيرة آرامية مستقلة إلى أن فتحها سلمنصر الثالث فى سنة ٨٥٣ ق.م. ثم استولى عليها ساردورى ملك الأورارتو (أرمينيا الحالية) ولكن سرعان ما استعاد الآشوريون الاستيلاء عليها فى عهد تغلا تفلصر، وبقيت تحت سلطتهم حتى انهيار دولتهم فى سنة ٦١٢ ق.م. وخضعت حلب بعد ذلك للحكم البابلى الحديث لمدة قرن تقريبا. ثم دخلت فى حوزة الإمبراطورية الفارسية الأخمينية وبقيت حتى سنة ٣٣٣ ق.م حيث فتحها الإسكندر الأكبر المقدونى.

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥.

ودخلت، بعد وفاة الإسكندر فى حوزة قائده سلوقس نيكاتور مؤسس السلالة السلوقية، فأعاد إليها مجدها ورممها وجدد بناءها وسماها (بيروة) تخليد الاسم مدينة بيروة المقدونية، وسكنت «حلبًا» جالية مقدونية كبيرة أتت من بيروة فأصبحت من جديد إحدى المدن السورية الكبرى. واحتلها الأرمن لقليل من الوقت فى عهد ديكران الكبير.

ثم فتحها الرومان سنة ٦٤ ق.ن على يد قائدهم بومبه، وقد ازدهرت فى عهد السلم الرومانى وكانت فى العهد البيزنطى أبرشيه كبرى. وغزاها فى سنة ٥٤٠م الفرس الساسانيون وخربوها وحرقوها وإن لم يتمكنوا من فتح قلعتها. ولكن الإمبراطور البيزنطى جستنيان رممها وبناها وحصنها.

الفتح الإسلامى لحلب :

فتح المسلمون «حلبًا» فى سنة ٦٣٦ م بقيادة أبى عبيدة عامر بن الجراح وخالد بن الوليد. وازدهرت حلب فى العصر الأموى والعصر العباسى، وحكمها فى القرن ٤هـ/١٠م بنوحمدان، وبلغت ذورة مجدها فى أيام سيف الدولة الحمدانى، وكان له فضل كبير فى قيادة الحروب التى دارت رحاها بين المسلمين والروم. وقد غزا هؤلاء فى عقر ديارهم، فى قلب الأناضول، ولكنه غلب على أمره أخيرا، واستطاع نيقفور فوكاس غزو حلب، فخربها تخريبا شنيعا وإن لم يتمكن من قلعتها، وقاد كثيرا من سكانها أسرى حينما غادرها، ثم عاد إليها سيف الدولة فرممها وأسكن بها سكان قنسرين عوضًا عن سكانها الأصليين الذين أسرهم الروم. وكان سيف الدولة يكرم الشعراء والكتاب والعلماء، ومن أشهرهم الشاعر أبو فراس الحمدانى وأبو الطيب المتنبى.

ثم تناوب الحكم على حلب العبيديون فى سنة ٣٠٦ هـ - ١٠١٥م والمرادايسون سنة ٣١٥هـ، ١٠٢٤م والسلجوقيون سنة ٤٧٥هـ، ١٠٨٦م. وحين زحف الصليبيون على سوريا واستولوا على أنطاكية سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م سعى رضوان أمير «حلبًا» السلجوقى، مع سائر الأمراء المسلمين إلى استعادة أنطاكية. فلم يفلح وقد حاصر الصليبيون حلب مرارا وفرضوا الجزية عليها. ثم استعان الحلبيون بعماد الدين بن زنكى أمير الموصل الذى قبل اعتلاء عرش حلب. ونجت هذه فى عهده من الكابوس الصليبى. وخلف نور الدين محمود والده وتكاثرت انتصارات المسلمين على الصليبيين وتمكنت جيوش حلب من أسر كثير من رءوس الصليبيين والروم ومن بينهم بودان الثانى ملك القدس، ورينودى شاتيون أمير أنطاكية، وجوسلان كونت اديسا (المرها - اروقه).

وحكم «حلبًا» بعد وفاة نور الدين ابنه، ثم آلت إلى صلاح الدين الأيوبى الذى وضع أخاه حاكما عليها. ثم أعطاها إلى ابنه الملك الظاهر غازى. وكان هذا من أعظم ملوكها ومصلحيها. فقد رمم أسوارها وحصن قلعتها وجعلها مركزا له ولبلاطه.

وخلف الملك الظاهر ابنه الملك العزيز ثم الملك الناصر الثانى يوسف، وقد استولى المغول فى عهد الأخير على حلب بقيادة هولاكو وذلك سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م. وقد أحرقها هذا وسبى سكانها وتمكن من قلعتها بعد حصارها ووعده باحترامها واحترام من فيها. ولكنه قتل حماتها وخربها.

وخرج المغول من حلب بعد انتصارات المماليك عليهم فى عين جالوت وحمص. ورمم الملك الأشرف قلاوون المدينة والقلعة. وما لبث المغول أن عادوا إلى حلب واحتلوها فى عهد تيمورلنك سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠١م، وهدموها وأحرقوها ودمروها من جديد، ولكنهم لم يمكثوا فيها طويلاً. فعاد إليها المماليك ورمموها وظلوا فيها إلى عام ٩٢٢هـ / ١٥١٦م.

ودخلت حلب فى حوزة العثمانيين بعد معركة مرج دابق - شمالى حلب - وظلت خاضعة للعثمانيين حتى سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م، حيث استولى عليها إبراهيم باشا بن محمد على باشا والى مصر. وظلت خاضعة للحكم المصرى حتى عام ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠م، وعاد إليها العثمانيون من جديد بمعونة الدول الأوروبية وعلى رأسها إنجلترا وروسيا والنمسا وظلوا فيها إلى آخر الحرب العالمية الأولى. وحينئذ دخلت فى حكم الأمير فيصل بمساعدة الحلفاء. ثم خضعت مع المدن السورية للحكم الفرنسى منذ عام ١٩٢٠ حتى عام ١٩٤٦م حين نالت سورية استقلالها.

أسواق حلب :

عرفت حلب بأسواقها المتنوعة التى سميت بأسماء الحرف والصناعات التى كانت قائمة فى المدينة ومنها سوق النحاسين وسوق العطارين وسوق الحدادين، سوق البن، سوق الجمال، سوق الحرير، سوق الحصارين، سوق الخابية، سوق الخشابين، سوق الخضرية، سوق الخيل، سوق الزجاجين، سوق الصباغين، الذين كانوا يقومون بصبغ الأقمشة، وسوق الصرماتية ويسمى القوافخانة، وتصنع فى هذا السوق وتباع الأحذية الحلبية التقليدية والمعروفة باسم الصرماتية، وتكون حمراء أو صفراء. وسوق الصياغ، ويوجد فى حلب سوقان للصياغ، وفيها الآن عدة أسواق للصياغ. وكانت نتيجة ازدهار التجارة أن انتشرت الخانات بحلب ومن أشهرها خان السبيل وخان الحرير وخان إستانبول، خان الشوربجى. وكثرة الخانات فى حلب دليل واضح على ازدهار الحركة التجارية.

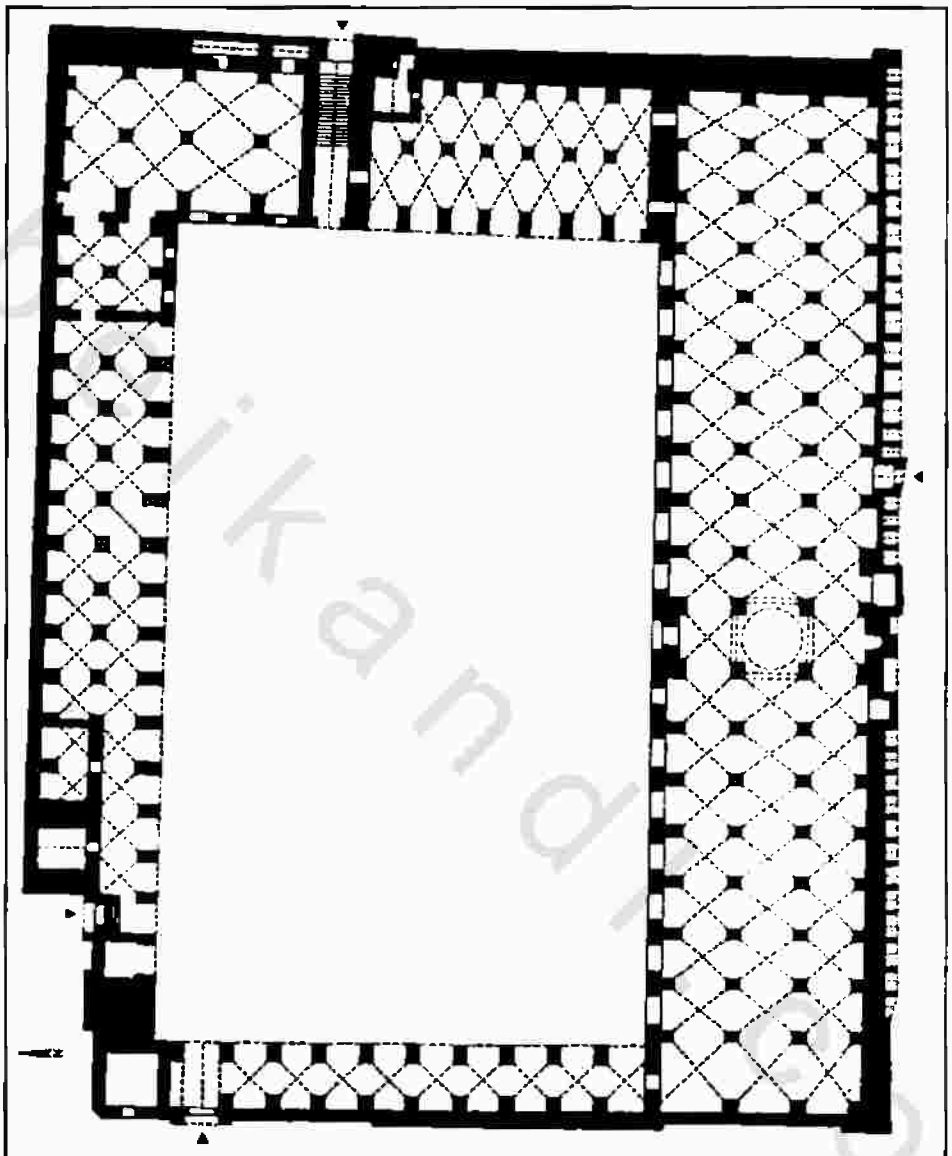

شكل رقم (٢٢): تخطيط جامع حلب الكبير.

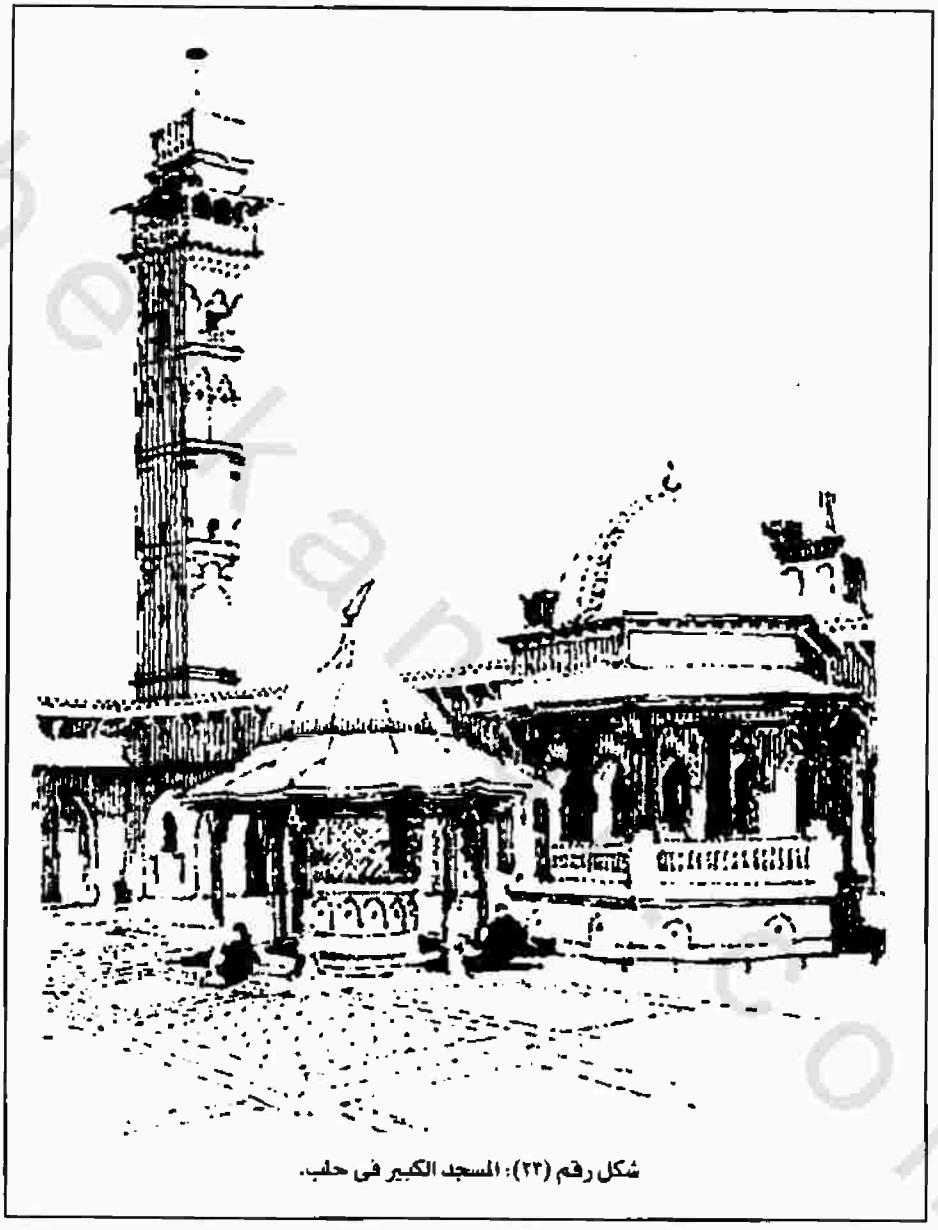

شكل رقم (٢٣): المسجد الكبير فى حلب.

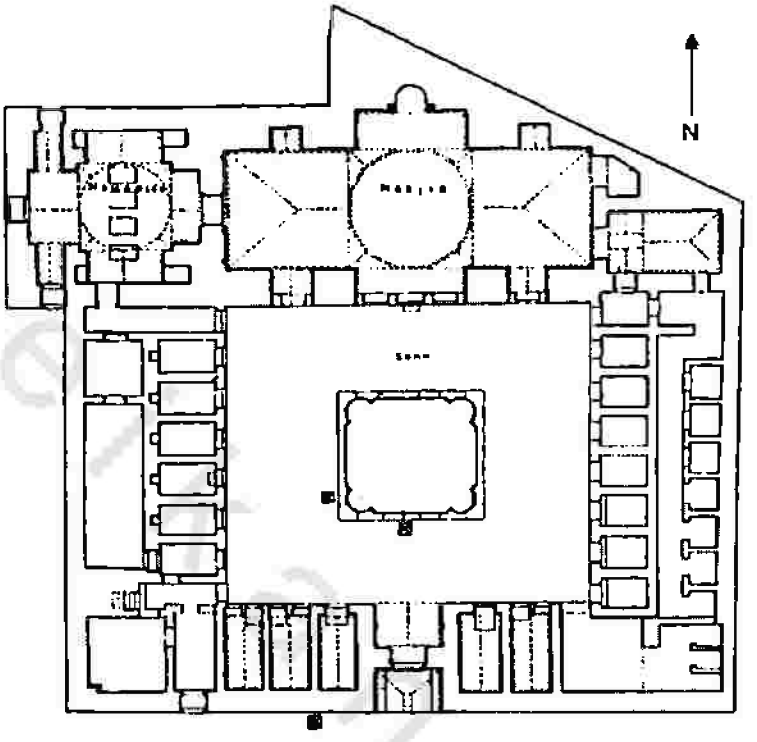

شكل رقم (٢٤): المدرسة السلطانية فى حلب.

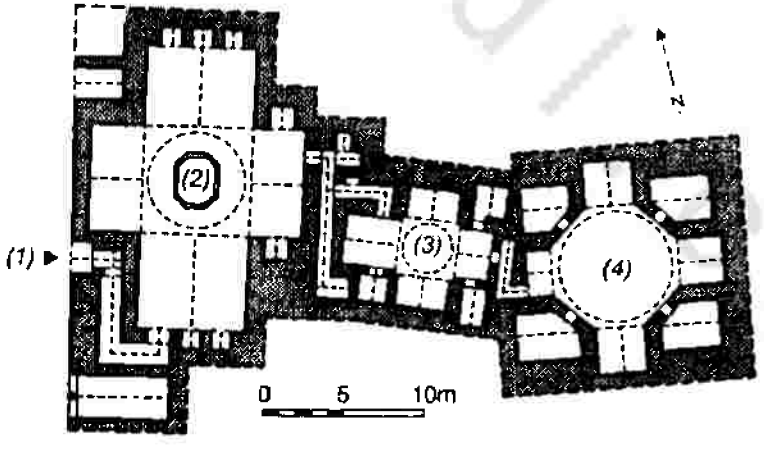

شكل رقم (٢٥): حمام يلبغا الناصرى فى حلب.

(١) المدخل (٢) القسم البرانى (٣) القسم الوسطانى (٤) القسم الجوانى.

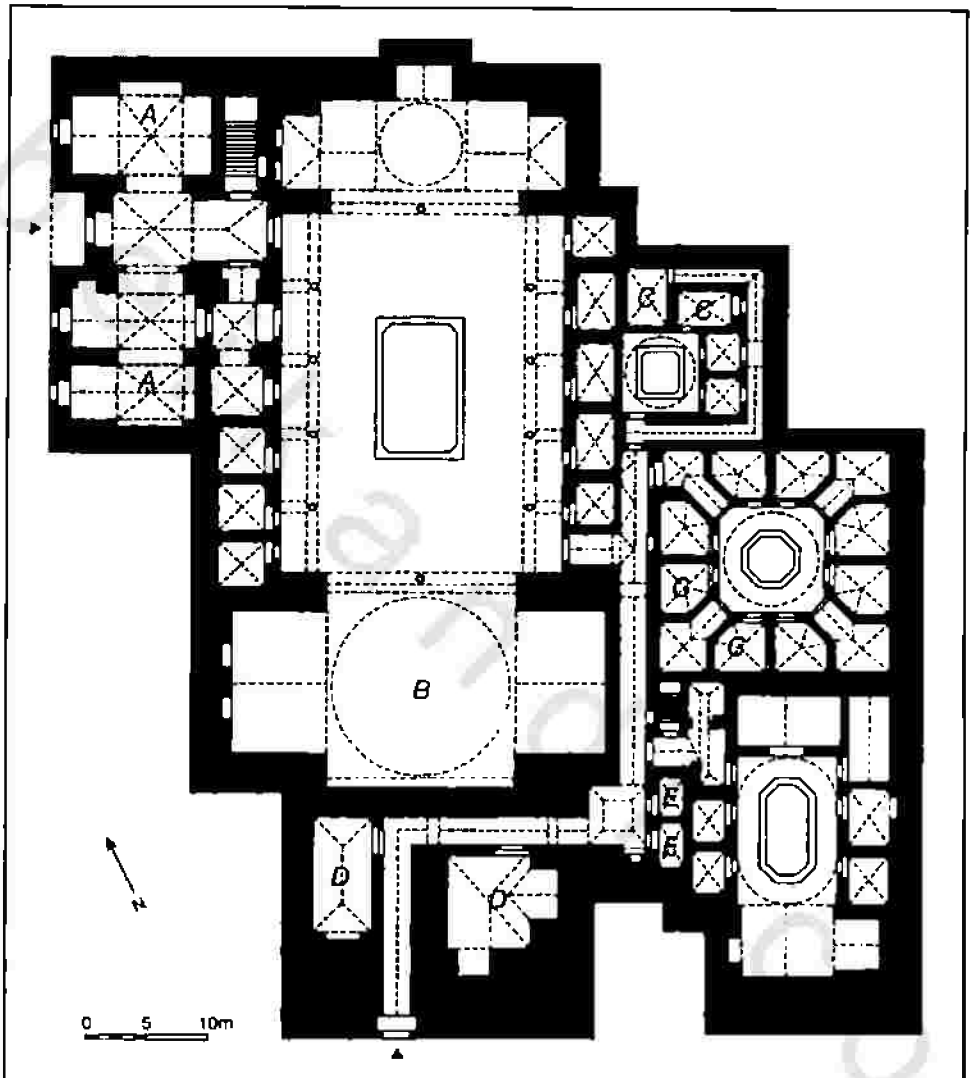

شكل رقم (٢٦): بيمارستان أرغون الكاملي.

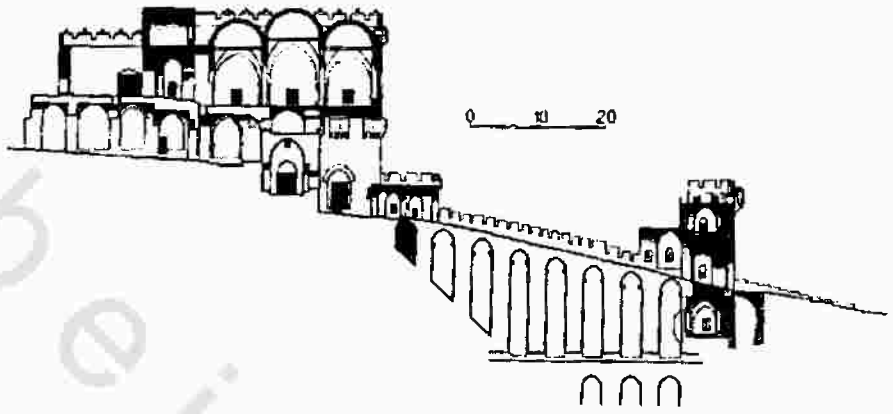

شكل رقم (٢٧): باشورة قلعة حلب.

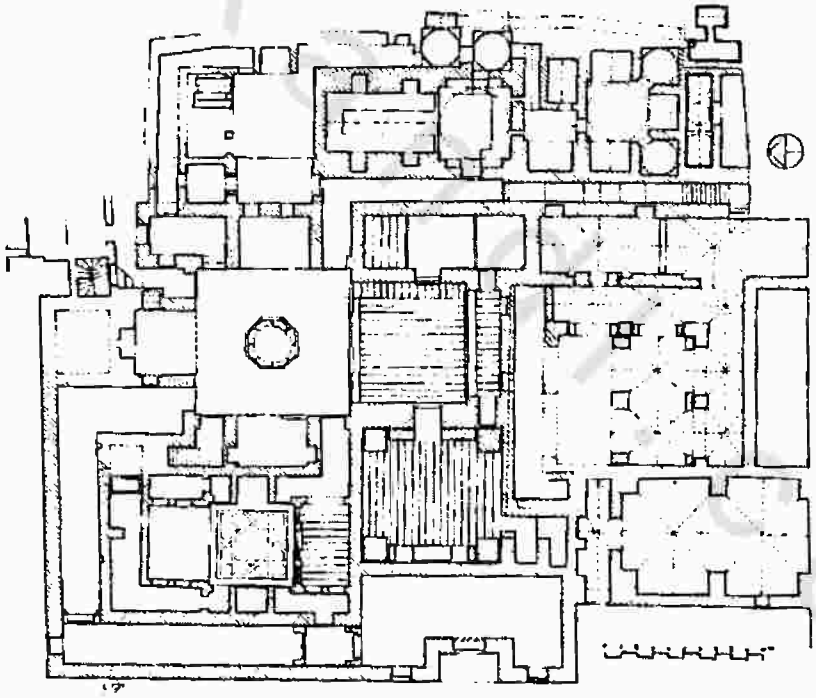

شكل رقم (٢٨): تخطيط القصر الأيوبى والحمام فى قلعة حلب.

المنشآت الصناعية :

بلغت العديد من الصناعات ذروتها وروعتها ودقتها فى مدينة حلب خلال العصرين المملوكى ثم العثمانى. إن ما تدلنا عليه الآثار الباقية وسجلات المحكمة الشرعية وأوقاف حلب يؤكد أن المدينة شهدت فى العصر العثمانى نشاطا صناعيا مكثفا خاصة فى صناعة النسيج، بلغ هذا النشاط ذروته فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، ويعود ذلك إلى موقع حلب على طرق التجارة وانفتاحها على السوق الكبير للدولة العثمانية. كان يوجد فى حلب فى بداية القرن التاسع عشر ١٢ ألف نول نسيج و١٠٠ مصبغة بالإضافة إلى قائمة طويلة من المنسوجات المتنوعة منها، منسوجات من الحرير ومن الساتان، وأقمشة مقصبة بالذهب والفضة، وشيلان من الصوف. عثر على وثيقة مؤرخة عام ١٧٦٢م. خاصة بصناعة النسيج فى حلب تذكر على الأقل ٤٣ نوعا مختلفا من الأقمشة المنسوجة فى حلب.

إن الاحصائيات التجارية الخاصة بمدينة مارسيليا الفرنسية هى مؤشر طيب على ازدهار هذا الإنتاج فى القرن الثامن عشر الميلادى:

لقد ازدادت مشتريات مرسيليا من منسوجات حلب من ٨٥ ألف جنيه فى ١٧٠٠ - ١٧٠٢م. إلى مليون و٣٢٦ ألف جنيه فى ١٧٨٥ - ١٧٥٤م.. ثم وصلت إلى مليون و٦٩٦ ألف جنيه فى ١٧٨٥ - ١٧٨٩م. أى على التوالى ١٠،٤٪ و٦٣،٩٪ و٤٨،٢٪ من مجموع مشتريات مرسيليا من المنسوجات وفى خلال هذه الفترة الأخيرة كانت مرسيليا تستورد من حلب ٦٧٪ من مجموع قيمة المنسوجات التى تستوردها بلدان المشرق.

نمت صناعة النسيج فى حلب فى الضاحية الشمالية الشرقية للمدينة. وكانت أحد عوامل النمو العمرانى لهذه المنطقة. فقد شهدت المنطقة الواقعة شمال باب النصر إقامة مشاغل للنسيج أو للصباغة، ظل العديد منها قائما إلى اليوم.

كان هذا التوسع يتركز فى قيسارية النسيج، وهى عبارة عن مبنى مستطيل به غرف النسيج المتفاوتة المساحة، وقد شيد فى حى الجديدة ضمن وقف بشير أغا ثلاث قيساريات تضم على التوالى ٢٧ و١٤ و١٦ غرفة ذات مساحات متنوعة للغاية أكبرها طوله ٧،٨٠ مترا وعرضها ٦،٣٠ مترا أى مساحتها ٤٩ مترا مربعا ويبلغ طول أصغر غرفة ٥،٦٠ مترا وعرضها ٣،٤٠ أى بمساحة قدرها ١٩ مترا مربعا، وهى موزعة على طابقين. كانت هذه القيساريات مزودة بسلالم فى الفناء للوصول للطابق العلوى الذى يتضمن شرفات واسعة حيث يمكن للنساجين القيام بالعمليات التى تستلزم نشر الخيوط. كان ريع هذه المنشآت الصناعية يوقف غالبا للصرف منه على أوجه الخير المختلفة خاصة[1] المساجد.

---

(١) أندريه ريمون. المدن العربية الكبرى، ص ١٩٨، ١٩٩، ترجمة لطيف فرج. دار الفكر للدراسات و لبحوث. القاهرة ١٩٩٠.

كما كانت صناعة الصابون إحدى الصناعات المزدهرة فى حلب، وقام بارييه دى بوكاج بإحصاء سبعة معامل للصابون (مصبنة) فى حلب. توجد منها مصبنة ما زالت موجودة وإلى حد ما سليمة. وهى عبارة عن مبنى كبير أقيم فى القرن السابع عشر أو الثامن عشر الميلادى، يشتمل المبنى من الداخل على أحواض لصنع الصابون فى ردهات معقودة، ويوجد فى الطابق العلوى مناشر تعلوها مناور سماوية.

ومن المنشآت الصناعية التى ظلت باقية فى حلب إلى وقت قريب المصبغة الكبيرة المشيدة فى القرن السادس عشر والتى كانت تقع خارج باب أنطاكية: كان يبلغ طول هذه المصبغة ١٧٠ مترا وعرضها ٤٠ مترا ومساحتها حوالى ٦٨٠٠ مترا مربعا، وتشمل ٥٣ غرفة فى الطابق الأرضى و٥٨ غرفة فى الطابق العلوى. وهى ملحق بها حمام مخصص للدباغين ومسجد يقع بالقرب منها.

*** منازل حلب :**

تركزت فى وسط حلب العديد من منازل أثرياء المدينة، والتى تتراوح مساحتها ما بين ٤٠٠ إلى ٩٠٠ مربع، ويتوسطها صحن به حوض للمياه أو فوارة وبه سلم صاعد للطابق العلوى، ويطل عليه إيوان يجلس فيه سيد الدار مع ضيوفه أو أهل بيته، وبالمنزل قاعة كانت تمتاز بالفخامة وتستخدم لاستقبال الضيوف. هذا الطراز من المنازل انتشر فى حى سويقة على وحى فرافيره. وهناك مساحات أقل للمنازل فى حلب تتراوح بين ٨٠ و٢٠٠ متر مربع وتتباين عناصرها المعمارية مع تباين ثراء مالكها.

*** مساجد وجوامع ومدارس حلب :**

جامع حلب الكبير: بنى جامع حلب الكبير فى العهد الأموى على هيئة جامع دمشق فى أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك ثم تهدم أكثر من مرة، كانت الأولى حين غزا الإمبراطور (نقفور فوكاس) مدينة حلب وخربها، والأخيرة كانت على يد تيمورلنك، وجدد فى العهد المملوكى. وأقدم شىء فيه مئذنته الرائعة، وهى مربعة الشكل شيدت فى عام ١٠٩٠م، ويشتهر أيضا بمنبره الخشبى المصنوع من خشب الأبنوس المطعم بالعاج، صنع فى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى القرن ٨هـ/١٤م[1].

---

(١) محمد أبو الفرج العش وعبد القادر الريحاوى، المعالم الأثرية والتاحف فى الجمهورية العربية السورية. ص٢٦٤.

بحث فى كتاب العالم الأثرية فى البلاد العربية جـ٢، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، القاهرة ١٩٧٢م.

وفى حلب كثير من المساجد أهمها جامع الأطروش الغنى بواجهاته المبنية بالحجر المنحوت وهو من العهد المملوكى ثم جامع الخسروية وجامع العادية والبهرمية وهما من العهد العثمانى، وفى القرن ١٠هـ / ١٦م تمثل فن العمارة العثمانى بقبابها والقاشانى الذى يزين جدرانها.

المدرسة الشاذبختية:

أنشأها الأمير جمال الدين شاذبخت الهندى الأتابكى، وذلك تلبية لأمر نور الدين محمود سُجل تاريخ إنشائها سنة ٥٨٩هـ / ١١٩٣م، على مدخلها[1] الرئيسى الذى يقع فى مقابلة إيوان القبلة. ولما تم بناؤها استدعى الأمير جمال الدين شاذبخت، العلامة نجم الدين مسلم بن سلامة من سنجار ليتولى التدريس بها، وتقع المدرسة فى السوق المعروفة باسم سوق الغرب، وهى تعرف حاليا باسم جامع المعروف[2].

المدرسة الجوانية:

من المدارس ذات الإيوانين بحلب المدرسة الجوانية أو السلطانية التى بدأ فى تأسيسها الملك الظاهر بن صلاح الدين إلا أنه توفى سنة ٦١٣هـ قبل إتمامها وبقيت مدة بعد وفاته حتى شرع فى تكملتها شهاب الدين طغرل أتابك الملك العزيز فعمرها وأكملها سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٣م. وقد كانت مدرسة مشتركة فقد خصصت لتدريس مذهبى الشافعية والحنفية، وقد درس بها القاضى بهاء الدين بن شداد، وولى نظارتها القاضى زين الدين أبو محمد عبد الله الأسدى قاضى قضاة حلب.

المطبخ العجمى:

قصر قديم من القرن ٦هـ / ١٢م، يقع إلى دوار خان الوزير بحلب. يعتبر ما بقى منه روائع العمارة ويمثل بأواوينه ومقرنصات قتبة فنا أصيلا توطد فى عصر السلاجقة وأتابكهم.

البيمارستان الأرغونى:

لعله أهم البيمارستانات التى ما تزال قائمة فى الشام، ويعتبر مثلا كاملا للبيمارستانات التى كانت تقوم مقام المستشفيات فى عصرنا، وهو بناء هام من حيث مخططه وفن عمارته، بناه فى محلة باب قنسرين نائب السلطة أرغون شان سنة ٨هـ / ١٤م، ويوجد بحلب بيمارستان أقدم منه بنى فى عهد نور الدين فى محلة الجلوم لكنه متهدم بعض الشىء.

---

(١) أسعد طلس، الآثار الإسلامية والتاريخية فى حلب، ص ٧٣.

(٢) سعاد ماهر محمد، العمارة الإسلامية على مر العصور، ص ٥١٤، جـ ٢، دار البيان العربى، جدة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

السور والأبواب:

ما تزال مدينة حلب تحتفظ كأكثر مدن الشرق بجزء من أسوارها الحصينة وعدد من بواباتها الضخمة، وقد تهدم سورها مرات خلال الغزوات التى اجتاحت المدينة فى أيام الروم والتتار ثم أعيد ترميمه، وما يشاهد منه اليوم يرجع إلى العهدين الأيوبى والمملوكى، وأهم أبواب السور الباقية: باب النصر، وباب الحديد، وباب أنطاكية، وباب قنسرين.

قلعة حلب:

تاريخ القلعة يعتبر صدى لتاريخ المدينة، وهو حافل بأحداث النضال والمقاومة. تذكرنا القلعة بأبى عبيدة وخالد وقصة الفتح الخارقة، وتذكرنا بسيف الدولة وحروبه الدائمة مع الروم البيزنطيين، وبالملك العادل نور الدين ومعارك التحرير التى قادها ضد الصليبيين، إلى غير ذلك من المواقف والذكريات.

شيدت قلعة حلب فى العهد الهلنستى فوق مرتفع طبيعى يتوسط المدينة، كان فى العهود السحيقة مقرا للمدينة القديمة التى تهدمت مع الزمن.

ولكن الأبنية التى نشاهدها الآن ترجع فى مجملها إلى العهدين الأيوبى والمملوكى، وأكثرها يعود إلى أيام الظاهر غازى، أجريت بها ترميمات واسعة فى عهد سلاطين المماليك، قلاوون وقايتباى وقانصوه الغورى.

وأهم شىء فى القلعة اليوم، خندقها العميق الواسع الذى يبلغ قطره، الكبير أكثر من خمسمائة متر وعرضه ستًا وعشرين مترا. وسفح القلعة المشرف على الخندق كان مصفحا بالحجارة المنحوتة، ثم المداخل الحصينة التى ما تزال قائمة بحالة جيدة، وتعتبر من أرقى ما وصل إليه فن التحصين العسكرى من براعة الهندسة وإتقان البناء.

لقد زودت قلعة حلب بباشورة (مدخل منكسر) يمتاز بكثرة عدد المنعطفات فيه إذ يبلغ عددها نحو ستة منعطفات، وهى كثرة تزيد من مناعة القلعة لما تسببه من وسائل التعويق عن المرور بسهولة من خلالها، وما تجعل المهاجمين يتعرضون له من ضرب بالسهام والحراب فى أثناء مرورهم بتلك المنعطفات، فضلا عن المنحدر القاسى الذى يتقدم المدخل، والذى تحمله القناطر المشيدة فوق الخندق المحيط بالقلعة.

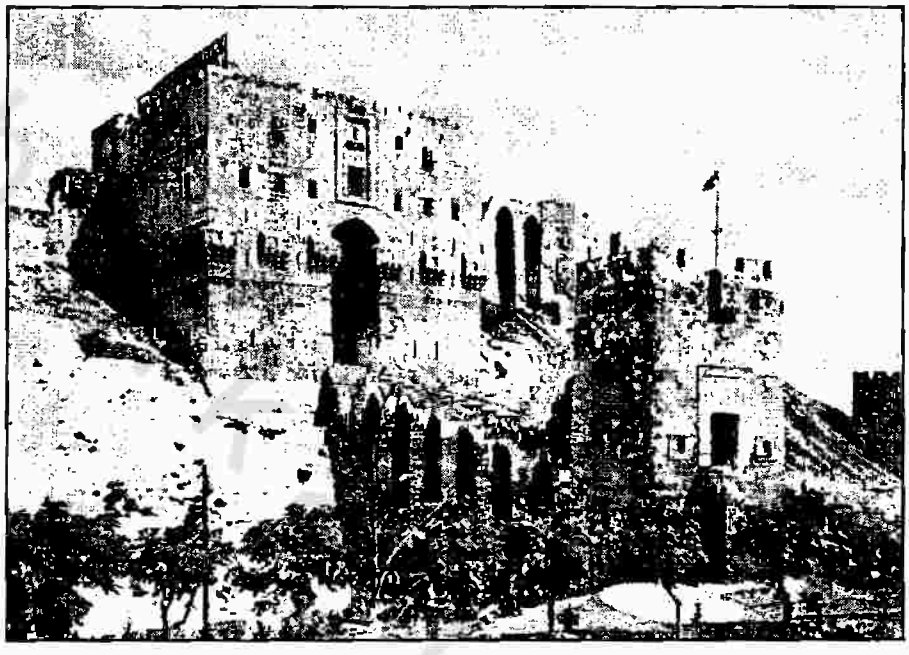

صورة رقم (٥٢): قلعة حلب الباشورة.

صورة رقم (٥٢): لوحة لقلعة حلب رسمها ألبرت بوش (١٨٤٢ - ١٩٢٩).

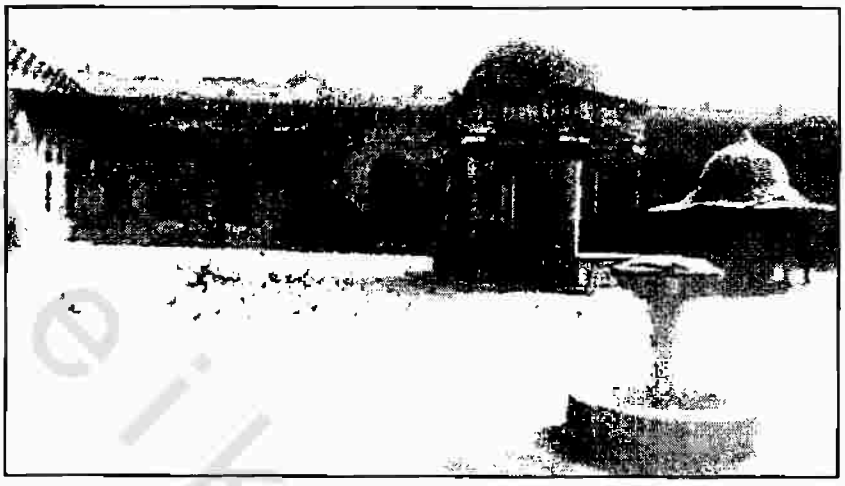

صورة رقم (٥٤): فناء المسجد الأموى فى حلب.

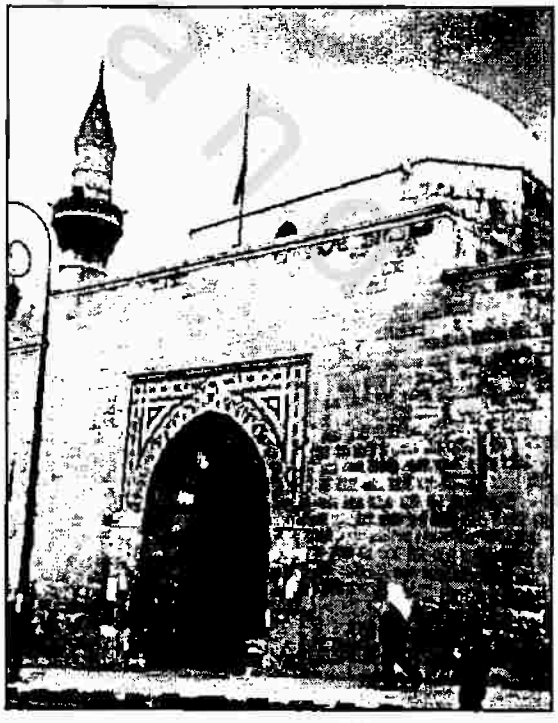

صورة رقم (٥٥): مطبخ العجمى فى حلب.

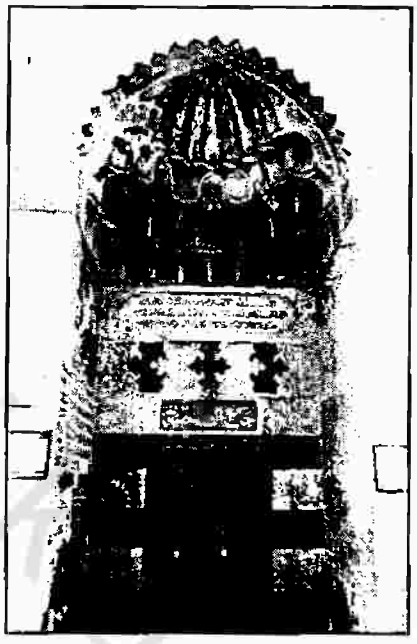

صورة رقم (٥٦): جامع الصالحية فى حلب.

صورة رقم (٥٧): المدرسة الحلوية - حلب.

صورة رقم (٥٨): مسجد الطواشي- حلب.

obeikandl.com

العمارة الإسلامية في مسقط

مدينة مسقط مدينة عريقة، تزهو بمبانيها التاريخية من قلاع وحصون وبوابات ومبان أثرية.

وتمتزج فيها العراقة التي تدل على ماضيها العريق، بمشاريع التنمية الحديثة التي وضعتها في مصاف المدن المتقدمة.

الموقع:

لقد كانت مسقط ولا تزال بحكم موقعها الاستراتيجي على خليج عمان مركزًا بحريًا مؤثرًا في حركة الاتصال بين آسيا وأفريقيا وأوروبا. كما كانت نقطة اتصال بين الشرق الأوسط والشرق الأقصى.. وكان لمسقط دورها البارز منذ فجر التاريخ. بحكم موقعها في منطقة الحضارات القديمة.

وقد أسهب الرحالة والجغرافيون المسلمون في وصف موقع مسقط وأهميته كثغر على الخليج تحيط به جبال شاهقة فتأمن السفن الراسية فيه من أخطار العواصف واضطرابات البحر، وصف المقدسي «مسقطًا» بأنها «أول ما يستقبل المراكب اليمنية، ورأيته موضعًا حسنًا»[1] وذكر البكري أنها مجتمع المراكب التي تخرج من صحار[2] ووصفها ابن المجاور بأنها مرسى مدينة صحار[3]، وتقع قرب مسقط مقاصات اللؤلؤ ولذلك أصبحت مركزًا للغواصين[4]، ولم يسهب ياقوت الحموي في الحديث عن مسقط فقال عنها «مسقط مدينة من نواحي عمان في آخر حدودها مما يلي اليمن على ساحل البحر»[5]، على عكس الحميري الذي قال عن مسقط الكثير فذكر أن «مسقطًا» في طريق عمان على البحر، يمر عليها من أراد بلاد الهند والصين فيسير مع الشمال تلقاء الجنوب حتى يصير إلى مسقط هذه وهي بين جبلين، وترفأ هناك السفن وتستقي من آبار هناك عذبة المياه وتحمل منها الحجارة لرمي العدو إذا خرج

---

(١) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٩٣.

(٢) البكري، المسالك والممالك ورقة ٢١٥ب، د. شوقي عثمان، تجارة المحيط الهندي في عصر السيادة الإسلامية، ص ١٧٦، عام المعرفة، العدد ١٥١ ذو الحجة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

(٣) ابن المجاور، تاريخ المستبصر، جـ ٢ ص ٨٤، د. شوقي عثمان، المرجع السابق، ص ١٧٨.

(٤) شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ص ٢١٨.

(٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان جـ ٥ ص ١٢٧، طبعة دار صادر بيروت.

عليها ثم تسير مع الشمال، وجبال العرب ماثلة ظاهرة، حتى تمر مقدار تسعين فرسخًا إلى حدود الشحر وحضر موت[1].

مسقط فى التاريخ:

تشير الكشوف الأثرية إلى أن منطقة مسقط قد سكنها الإنسان منذ فجر التاريخ. فتدل الآثار التى اكتشفت بحى الوطية بمسقط فى عام ١٩٨١م، والتى يقدر عمرها بحوالى ٩٦١٥ سنة، على أن الإنسان قد عاش فى هذه المنطقة منذ العصر الحجرى الأول، وتتدرج الآثار المكتشفة إلى عمار المنطقة فى العصر الهيلبوستى ثم العصر البرونزى، كذلك تدل الآثار المكتشفة برأس الحمراء بمسقط على أن سكانها كانوا مجموعة من الصيادين فى الحقبة الألفية الثالثة قبل الميلاد، وأنهم كانوا على درجة عالية من الرقى والتطور.

ومناطق مسقط المختلفة عامرة بالمواقع الأثرية[2]. يذكر المؤرخ العمانى نور الدين السالمى فى كتابه «تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان» نقلاً عن الشاعر ابن رزيق، أن مسقط «عمرها بعض عرب عمان، وهم يمن الأنساب، فغرسوا فيها نخيلاً، وأشجارها تسقيها الآبار» ويستفاد من هذا القول أن مسقطًا واحدة من مدن التاريخ القديم وأنها بنيت مع تدفق الهجرات التى سبقت انهيار سد مأرب، أو تلك التى أعقبت ذلك الحدث.

وإذا كان من الصعب تتبع تاريخ مسقط القديم فى الحقب البعيدة، فإن كتب التاريخ حفظت لنا تاريخ المدينة منذ العصور الإسلامية الأولى، ويستدل على ذلك من وصف ابن ماجد الذى قال: «ميناء مسقط ولا يوجد له مثيل فى العالم، حيث إنه يختص بالبحار والسفن»[3].

فى عام ١٥٠٧م احتل البرتغاليون المدينة مثل غيرها من المدن العمانية الواقعة على الساحل الشرقى لعمان، وقد جاء هذا الاحتلال فى نطاق المد الاستعمارى البرتغالى الذى شهدته تلك الفترة[4] ولعل احتلال البرتغاليين لمسقط بالذات يدل على إدراكهم لأهميتها الاستراتيجية القصوى وموقعها الجغرافى المتميز.

---

(١) محمد بن عبد المنعم الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار، ص ٥٥٩، تحقيق د. إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة بيروت ١٩٨٠م.

(٢) مسقط الحضارة والحاضر، بلدية مسقط، ص ١٨ مسقط ١٩٩١م.

(٣) أحمد بن ماجد، تاريخ عمان البحرى، (مخطط كتاب الفوائد) ص ١٠٢.

(٤) مايلز، الخليج بلدانه وقبائله ص ١٧٣.

وصف البوكيرك القائد البرتغالى الذى استولى على مسقط عندما شَنَّ حملته للاستيلاء عليها: بأنها مدينة كبيرة وآهلة بالسكان، تحيطها من الجانبيين جبال شاهقة وواجهتها قريبة جدا من أطراف البحر، وخلفها نحو الداخل يوجد سهل كبير مثل ساحة لشبونة، وتوجد بها برك كثيرة من المياه الحلوة التى يستعملها سكانها، وتوجد هناك بساتين وحدائق وأشجار النخيل التى تروى من مياه الآبار، والميناء الصغير على شكل حدوة حصان ومحمى من الرياح، وهو مركز تجارى حيث تضطر جميع السفن المبحرة فى تلك المناطق أن تدخله، وذلك لتجنب الساحل الضحل فى الطرف المقابل، وفى مسقط سوق قديمة لتصدير الخيل والتمور، وهى مدينة جميلة وبها مساكن جميلة وتزود من الداخل بكثير من المنتجات الزراعية مثل القمح والشعير والدخن والتمور، وتستقبل أى عدد من السفن التى تقدم إليها[1].

تحرير مسقط:

كانت أولى المهام التى التزم بها الإمام سلطان بن سيف الذى خلف الإمام ناصر بن مرشد، تحرير باقى الأراضى العمانية من السيطرة البرتغالية - وكانت مسقط هى الهدف الرئيسى والنهائى لهذه المرحلة من الصراعات العمانية البرتغالية، ولم يكن تحرير مسقط عملية سهلة أبدا. لأنها كانت محاطة بسورَيْن من الخلف تجمعها عدة حصون مزودة بالأسلحة، إلى جانب وجود سفينتين برتغاليتين فى عرض البحر، كانتا تطلقان نيرانهما على المهاجمين.

وقد استغل الإمام كل الفرص الممكنة لتحقيق هدفه مستغلا نفاذ المؤن والذخيرة، واختار فجر يوم الأحد توقيتا ملائما لشن هجمته الحاسمة، وذلك بناء على نصيحة أحد الهندوس المقيمين فى مسقط واسمه نارو تام، والذى أبلغ الإمام بأن البرتغاليين يكونون عادة سكارى يوم الأحد، وكان هذا الهندوسى على خلاف مع أحد القواد البرتغاليين بسبب إصرار الأخير على التزوج من ابنته.

وقد تمكن العمانيون من شن تلك الحملة ونجحوا فى الاستيلاء على مسقط، وذلك فى سنه ١٦٥٠م[2] وانتقل مركز إدارة البلاد من الرستاق إلى مدينة مسقط عام ١٧٨٤م[3]. وهذه المدينة منذ تلك اللحظات أخذ نجمها فى البزوغ، لتصبح قلب الإمبراطورية العمانية مترامية الأطراف

---

(١) صادق حسن عبدوانى، الدولة العمانية، نشأتها وازدهارها، ص ١٧، ١٨ بحث نشر فى المجلد الثانى لندوة حصاد نشر وزارة التراث القومى والثقافة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م

(٢) الرجع السابق ص ٤٠، ٤١.

(٣) فيلبس، تاريخ عمان ص ٨٤.

وكانت معظم شوارع المدينة - فى ذلك الحين - ضيقة، لا يزيد عرضها على ١٠ أقدام، وتحميها من حرارة الشمس سقوف من سقف النخيل. وقد قسمت الأعمال التجارية داخل السوق، بحيث يضم كل قسم منها نوعا من السلع، وتتكون الحوانيت من فتحة مربعة سعتها نحو ١٠ أقدام، حيث يعمل فيها الصناع أو يعرض التجار سلعهم على الأرصفة التى تفصلها من الجانبيين الطرق[1].

وظل هذا حال مسقط حتى وقت قريب حيث تطورت تطورا سريعا وتحولت إلى واحدة من أجمل مدن الشرق.

وبمسقط اليوم العديد من ملامحها القديمة، ونستطيع أن نوجزها فى الفقرات التالية وهى:

أسوار المدينة وأبوابها

كان يحيط بمسقط منذ العصور الوسطى على أقل تقدير أسوار وكتل كبيرة من الصخور الطبيعة، التى كانت تقوم مقام السور، وكان سمكها يبلغ مثلى أو ثلاثة أمثال سمك السور المبنى، إلا أن تلك الأسوار القديمة تهدمت بمرور الزمن، فأعيد بناؤها على ما هى عليه فيما بين عامى (١٦٢٣م / ١٠٣٣هـ) وعام (١٦٢٦م / ١٠٣٦هـ).

وتعتبر أسوار مسقط الخط الدفاعى الأول بالنسبة لتحصين وحماية المدينة، ومن ثم فقد أطلقت عليها المصادر التاريخية الحصن، فقد كانت تحيط بمسقط - التى يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب قرابة نصف ميل، وعرضها أى بعدها عن البحر قرابة ربع ميل- إحاطة السوار بالمعصم، اللهم إلا الجانب الشرقى حيث تحمى المدينة جبال شديدة الانحدار، يفصلها عن جبال (جلالى) فتحة تعرف باسم (مغب).

وهكذا نرى أن أسوار مسقط تحيط بالجانب الغربى والجنوبى منها فقط، أما الجانب الشمالى والشرقى فيحميهما خليج مسقط والجبال الشرقية، ويبلغ طول ضلع الأسوار الغربية قرابة (٦٠٠) متر، يبدأ فى الشمال عند (باب المثاعيب) وينتهى عند (الباب الكبير) فى نهاية الضلع الغربى من الأسوار، حيث يبدأ ضلع صغير يقطع زاوية التقاء الضلعين الغربى والجنوبى ويبلغ طوله (٢٠٠) متر.

ثم تأخذ الأسوار فى الامتداد نحو الشرق قرابة (١٣٠٠) متر. ويتخلل الأسوار على مسافات تكاد تكون متساوية أبراج مستديرة الشكل، يبعد كل منها عن الآخر (٣٠٠) متر. وتتكون

---

(١) مسقط الحضارة والحاضرة ص ١٩.

الأبراج من طابقين الأول منها مصمت، أما الثانى فيحتوى على غرف ودهاليز لإقامة الجند، كما يوجد فى جدران الطابق الثانى للأبراج مزاغل (أى فتحات للسهام) ويعلو الأبراج فتحات كبيرة مستديرة تسمح المسافة بينها لوضع فوهات المدافع، ويبلغ عدد الأبراج ثمانية، ثلاثة منها فى الضلع الغربى، وخمسة فى الضلع الجنوبى.

وتحتوى أسوار مسقط على ثلاثة مداخل، المدخل الأول: يقع فى الركن الغربى أسفل قلعة الميرانى ويعرف باسم (باب المتاعيب) المدخل الثانى: يقع عند نهاية الضلع الغربى للأسوار، ويؤدى إلى معظم الطرق التى توصل إلى ضواحى مسقط وإلى مدينة مطرح، ويعرف باسم الباب الكبير، المدخل الثالث: يقع فى منتصف الضلع الجنوبى. وهو مدخل رئيسى مماثل للمدخل السابق ويعرف باسم (الباب الصغير)[1].

وتحتوى أسوار مسقط على عدد من الدهاليز والممرات فى الطابق الأول التى تسمح بوجود الجنود لحمايتها ضد أى اعتداء، أما أعلى الأسوار فتحتوى على ممرات مكشوفة توصل بين الأبراج، التى تتسع للفرسان على صهوة خيولهم للتحرك بسرعة للدفاع عن المدينة[2].

أبراج مسقط

كما يحصن مسقط ويدافع ويراقب مداخلها من البر والبحر مجموعة من الأبراج التى تعلو الجبال التى تحيط بضواحيها، وقد بنيت هذه الأبراج من مجموعة من الصخور السوداء، مما جعلها تبدو كأنها منازل على قمم الجبال، ومهمة هذه الأبراج إعطاء إشارات ضوئية للقلاع والحصون حتى تستعد للدفاع عن المدينة أو الميناء وهى بذلك أشبه بفنارات الموانى ولعل من أهم وأشهر أبراج مسقط التى ما تزال باقية حتى الآن برج (سعالى) الذى يوجد فى الركن الجنوبى الشرقى للمدينة وبرج (بوستو) الذى يوجد خلف منتصف المدينة، وكذا برج المربع الذى يوجد على مسافة قريبة من وادى الكبير، وبرج (دامودر) الموجود فى الطرف الغربى

---

(١) د. سعاد ماهر محمد. الاستحكامات الحربية فى مسقط، ص ١٤١. ١٤٢، ندوة حصاد المجلد الثانى، وزارة التراث القومى والثقافة ١٩٨٠م / ١٤٠٠هـ.

د. سعاد ماهر، العمارة الإسلامية على مر العصور، جـ ٢، ص ٨٨٠. ٨٨١ دار البيان العربى جدة.

وانظر أيضًا، جى. وايزجربر، مسقط فى عام ١٦٨٨ ص ٢٧، ٢٨، سلسلة تراثنا، وزارة التراث القومى والثقافة، العدد رقم ٥٧ سنة ١٩٨٤م

(٢) د. سعاد ماهر، الاستحكامات الحربية فى مسقط، ص ١٤٢.

للمدينة، وبرج (مديمن) فى الطريق إلى ريام، وبرج مكلة عند نهاية الحافة التى تكون الجانب الغربى من الميناء، وهذه الأبراج جميعها لا عمل لها الآن[1].

قلاع مسقط

تعتمد مسقط فى حمايتها على قلعتى الميرانى والجلالى، الواقعتين على الصخور التى تشغل طرفى المنطقة الرملية على الشاطئ، إذ ترتفع كل منهما على جرف صخرى يبلغ ارتفاعه (١٥٠) قدما عن سطح البحر، ويمكن الوصول إلى كل منهما عن طريق مجموعة من الدرجات منحوتة فى الصخر.

كما أقامت البرتغال كشافات أو مناظير كشفية فى صيرة الشرقية، لمعاونة القلعتين (ميرانى وجلالى) فى الدفاع البحرى، على الشاطئ الشرقى للميناء وعلى بعد (٢٥٠) ياردة من رأس مسقط توجد صيرة الغربية على الطرف الآخر، يعلوها المأوى المقبى المعروف باسم مكلة الذى سبقت الإشارة إليه.

وفى داخل مسقط توجد مخازن لتخزين مياه المدينة تقع على بعد نصف ميل من وادى الكبير وتحميها قلعة مربعة الشكل، تحتوى على ساقطات (تعرف عند أهل عمان باسم راوية) وتعرف فى العمارة الإسلامية باسم "machicollis" بناها البرتغال[2].

قلعة ميرانى

تقع قلعة ميرانى إلى الغرب من مسقط أقامها البرتغال فى عهد الملك فيليب ملك أسبانيا بعد استيلائه على البرتغال ٩٨٨هـ / ١٥٨٠م، وقد قيل إن الحصن الذى أنشأه البرتغال فى غربى مسقط عرف باسم ميرانى نسبة إلى الكلمة البرتغالية ALMIRANTE التى أخذت بدورها من الاصطلاح العربى أمير البحار.

وقد تم بناء هذه القلعة سنة (٩٩٦هـ / ١٥٨٧م) على يد القائد بلكلور على نفس البقعة التى كان القائد دون جوا اللشبونى، قد أقام فيها قلعة جديدة سنة ١٥٢٢م والتى هدمها أمير البحر العثمانى الريس بيرى الذى استولى على مسقط لفترة وجيزة، ولما عاد الأتراك واستولوا على مسقط مرة أخرى (٩٩٠هـ/١٥٨٢م) لم يجد البرتغاليين مندوحة من أن يطلبوا من نائب الملك فى

---

(١) د. سعاد ماهر، المرجع السابق ص ١٤٢. د. سعاد ماهر، العمارة الإسلامية جـ ٢، ص ٨٨٢.

(٢) د. سعاد ماهر، الاستحكامات الحربية ص ١٤٢، ١٤٣.

الهند الأذن لهم ببناء قلعتين فى مسقط للدفاع عنها وتزويدهما بكل ما تحتاج من وسائل الدفاع والحراسة، فلما وافق أنشئوا القلعتين.

وقد اهتمت البرتغال اهتماما خاصا بهاتين القلعتين، ونعنى بهما ميرانى وجلالى، ومنذ إنشائهما أخذت تتوالى بهما التجديدات والترميمات والإضافات، ففى ١٠١٩هـ / ١٦١٠م، أقامت برجا كبيرا[١] بمستوى البحر ملحقا بقلعة ميرانى، وذلك حتى تمنع القوارب الصغيرة من أن تمر بالقرب من القلعة وهى فى مأمن من أن تصيبها نيران القلعة لأنها تسير تحت مستوى مرمى بهامها ومدافعها.

وقد ذاعت شهرة قلعة ميرانى حتى أصبح يضرب بها المثل فى قوتها ومناعتها.

قلعة الجلالى

تقع فى مقابلة قلعة ميرانى فى الجهة الشرقية من مسقط وقد تم بناؤها بعد قلعة ميرانى بعام أى سنة (٩٩٧هـ / ١٥٨٨م). ويقال إن قلعة جلالى قد أخذت اسمها من اسم القائد البرتغالى (SANJOA) وما تزال القلعة تحتفظ بتاريخ إنشائها حتى الآن، والنص مكتوب باللغة البرتغالية[٢].

وحينما سقطت القلعتان بيد العمانيين، كان من الضرورى إدخال تعديلات عليهما لتوفير مكان كاف لعدد كبير من الجنود الذين يقيسون قوتهم على أساس قدرتهم على القيام بطلعات وغارات خارج محيط قلاعهم[٣].

وإذا أخذنا ذلك بعين الاعتبار فإننا نستطيع أن نرى كيف تغيرت طبيعة القلاع من نظام دفاعى خالص إلى نظام هجومى، ونتيجة لهذا التعديل فى وظيفة القلاع والحاجة إلى إيواء عدد كبير من الحميات، أضيفت منشآت ضخمة وبذلك تغير الشكل الأول إلى الأشكال التى نراها اليوم.

---

(١) نقش على هذا البرج نص يحدد تاريخ إنشائه، وترجمته بالإنجليزية كما يلى:

(٢) Experience, ZEALAND TRUTH BUILT BEFORE ME DEFENDS ME, ON THE ORDER OF THE VERY HIGH AND POERFUL KINGDOM PHILIP, THIRD OF THIS NAME IN THE YEAR. 1610A.D.HAWALY: OMAN AND ITS RENAISSANCE P. 115

(٣) د. أى. دريكو، المبانى التاريخية الحربية فى عمان، ص ٢٢٩ المجلد الخامس لندوة حصاد، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، وزارة التراث القومى والثقافة، عمان.

لقد أقيم نظام الدفاع الحربى للبرتغاليين على أساس تفوقهم فى المدفعية التى كان استخدامها يتطلب عددا قليلا من الرجال بما فيهم بعض المرتزقة، أما العمانيون فهم على عكس ذلك فقد أقاموا قوتهم على أساس سرعة الحركة لعدد كبير من المهاجمين وعنصر المفاجأة[1].

وقد نتج عن الإضافات التى أدخلها العمانيون على القلعتين تغيير كبير فى معالمهما الأولى، ويرى بعض الباحثين أن تخطيط القلعتين قد تأثر كثيرا بتخطيط قلعة صحار الذى وصفه البوكرك وأشاد بها[2].

الوصف المعمارى

أما عن الوصف المعمارى لقلعة ميرانى، فهى تتكون من شكل مستطيل متعدد الأضلاع تمتد من الشرق إلى الغرب يتقدمها من جهة الشرق برج مستطيل ضلعه المطل على البحر مقبّو.

وهذا البرج يقع فى مستوى أعلى من باقى أجزاء القلعة ومن ثم ترتبط أبراج المراقبة بباقى القلعة عن طريق سور مدرج يتناسب وتدرج الصخور، ويشغل الركن الشرقى من القلعة برج كبير مستدير يطل على البحر ويتصل بباقى مبانى القلعة، التى تمتد إلى الغرب.

ويتكون هذا البرج الكبير من ثلاثة طوابق يشغل الأول منها غرف لإقامة العسكر والجند خالية من النوافذ اللهم إلا فتحات أبواب، ويشغل الطابق الثانى غرف بها فتحات لرمى السهام ومن ثم يقيم بها فرق من الجند على أهبة الدفاع.

أما الطابق الثالث وهو أعلى القلعة به ممرات متسعة تعلوها شرفات كبيرة مستديرة تسمح بمرور فوهات المدافع منها ولذلك يتواجد فى هذا الطابق فرق من جنود المدفعية.

أما باقى أجزاء القلعة التى تصل بين الأبراج فتتكون من ٣ طوابق الأول منها مسمط خال من الغرف، أما الطابق الثانى فيتكون من دهاليز وغرف بها فتحات لرمى السهام، والطابق الثالث يحتوى على ممرات يعلوها شرفات كبيرة تنفذ من بينها فوهات المدافع، ويتوسط مبانى القلعة أكثر من فناء مكشوف، ويوجد داخل أسوار القلعة مسجد قديم يرجع إلى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وهو من بناء أسرة بورسعيد.

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٠.

(٢) د. سعاد ماهر، المرجع السابق ص ٨٩١.

أما قلعة جلالى فتتكون من شكل نصف دائرى متعدد الأضلاع يشغل طرفيه برجان كبيران يطلان على البحر ويمتد بينهما سور غير مستقيم تتخلله أبراج صغيرة وبعض المبانى. ويتصل البرجان ببعضهما من الداخل بمبان ضخمة على شكل نصف دائرة، ونظام عمارة القلعة ومبانيها يشبه إلى حد كبير عمارة قلعة ميرانى[1].

بيوت مسقط الأثرية

تحتفظ أحياء مسقط القديمة ببعض البيوت التى يرجع بعضها إلى القرن السادس عشر الميلادى، وهى تعطى فكرة واضحة عن تخطيط البيوت العمانية، فقد كان المنزل يتكون من فناء مكشوف تحيط به غالبا المبانى من جهاته الأربع ويمكن الوصول إليه عن طريق مدخل رئيسى (بوابة كبيرة) كثير العمق وهو من النوع المنكسر وسقفه غالبا مقبوٌّ ينتهى إلى قلبه من الدرجات، وهكذا نرى أن المعمار استخدم فى مداخل البيوت والقصور نفس النظام الذى اتبعه فى مداخل الحصون والقلاع، وينتهى الدرج إلى شرفة رحبة تقود إلى غرف الاستقبال بالطابق الأول[2].

وهذه الغرف مرتفعة السقوف حتى يتمكن الهواء الساخن من أخذ دورة كاملة يبرد خلالها ثم يعود إلى أرض الغرفة رطبًا باردًا فيكيف المكان طبيعيًا. وقد زخرفت جدران قاعات الاستقبال المكْسُوَّة بالخشب الجيد، وكذا سقوفها برسوم زينية ملونة قوامها عناصر نباتية وهندسية، كما أحيطت أفاريزها بلوحات تحتوى على كتابات قرآنية وأحاديث نبوية وبعض أشعار محلية، كل ذلك بخطوط جميلة بديعة التكوين.

كذلك كانت أبواب تلك الغرف - المصنوعة من الخشب والمحتوية على مفاتيح كبيرة من النحاس- تحفًا فنية رائعة، نقش عليها بالحفر الغائر أو البارز نقوش قوامها الجامة أو الطبق النجمى.

وتعرف هذه المجموعة - من غرف الاستقبال التى تشغل عادة ضلعًا واحدا من أضلاع الدار أو القصر - بالمقعد الرجالى، ويقابله فى الضلع الآخر من الفناء بناء آخر يصعد إليه كذلك بقلبه مماثلة من الدرج ويحتوى على مجموعة من الغرف غطيت فتحاتها بالخشب الخرط، وهذه الغرف مخصصة لإقامة زوجة صاحب البيت، وهى تستطيع من خلال الخشب الخرط رؤية كل ما يدور فى مقعد الرجال المقابل لها دون أن ترى.

---

(١) د. سعاد ماهر، المرجع السابق ص ٨٨٦ ص ٨٨٧.

(٢) المرجع السابق ص ٧٩٣ ص ٧٩٤. مسقط الحضارة والحاضرة ص ٢١.

أما الجانبان الآخران من الفناء، فيحتويان على أكثر من طابق يحتوى كل منهما على مجموعة من الغرف المخصصة للمخازن والمطابخ والحمامات ودورات المياه، وكذا لإقامة أهل الدار أو موظفى القصر، وكل هذه الدور أو القصور تحتوى على طابقين أو أكثر وهى مبنية من الأحجار أو الطوب اللبن وكلها مكسوة من طبقة سميكة من الجص المزخرف بالرسوم قالبية قوامها الزخارف النباتية محورة عن الطبيعة.

* وأهم هذه البيوت هى (من غرب المدينة إلى شرقها):

١ - بيت جريزة.

٢ - بيت السيد شهاب بن فيصل.

٣ - بيت السيد نادر بن فيصل.

٤ - بيت فرنسا (المتحف العمانى الفرنسى).

٥ - بيت السيد عباس بن فيصل.

٦ - بيت راتلسى.

٧ - بيت البير.

٨ - بيت السفارة الهندية.

٩ - بيت مغب.

١٠ - بيت السفارة الأمريكية.

١١ - بيت السفارة الإنجليزية.

١٢ - بيت الزواوى.

العودة إلى التراث

حرصت بلدية مسقط على أن تعود مبانى المدينة إلى الطراز المعمارى الإسلامى مرة أخرى، خاصة بعد أن طغى الطابع المعمارى الحديث على مبانيها، فأنشأت العديد من المبانى التى تحمل الطابع الإسلامى؛ منها مبنى مجلس التنمية، ومبنى وزارة الخارجية الذى حصل على جائزة المشروع المعمارى من منظمة المدن العربية فى ٢٢ فبراير ١٩٨٦م، كمشروع متميز صمم على نسق يجمع بين أحدث أساليب البناء والتكنولوجيا المعاصرة كما يعكس فى نفس الوقت جانبًا من التراث وفنون العمارة التقليدية باعتبارها عمارة إسلامية[1].

---

(١) روت هول، لمحة تاريخية عن المبانى الأثرية فى مسقط، ص ١٠ وما بعدها، سلسلة تراثنا العدد ٤٢، الطبعة الثانية

ويتكون المبنى من طابقين، يحتوى مسقطه الأفقى على فنائين داخلين ويحيط بهما فى المستوى الأرضى مجموعة عقود محمولة على أعمدة، ويطل الدور العلوى على الساحة من خلال مجموعة فتحات طويلة مزخرفة، وقد عولجت تجهيزات المبنى التقنية من تكييف هواء وتهوية وإضاءة وغيرها بما يتفق مع الفكرة التصميمية للمبنى، هذا بالإضافة لفخامة وتنسيق المدخل الرئيسى الذى تتوسطه نافورة رخامية محاطة بأحواض الزهور والاهتمام بتزيين الموقع ككل بصور منسقة[1].

تلك كانت رحلة فى مسقط التى تعتبر بطرازها المعمارى واحدة من مدن العالم الإسلامى التراثية الهامة.

(١) مجلة عالم البناء، العدد ١٠٤، ١٩٨٩، ص ١٢ موضوع مبنى وزارة الخارجية العمانية بمسقط.

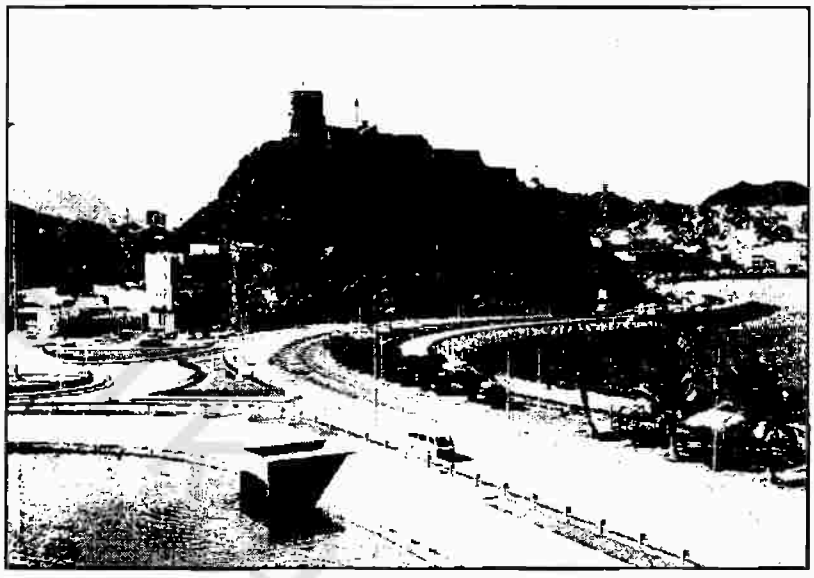

صورة رقم (٥٩) : قلعة مطرح (مسقط).

صورة رقم (٦٠) : قلعة اليرانى (مسقط).

العمارة الإسلامية فى البوسنة والهرسك

شهدت البوسنة والهرسك نشاطا معماريا كثيفا فى العصر العثمانى، وتنوعت هذه المنشآت بين منشآت دينية وسكنية وحربية وخدمية وتجارية وصناعية، وسوف نحاول إلقاء الضوء على بعض العمائر التى شيدت فى البوسنة، وتعود أهمية التعريف بهذه العمارة إلى ندرة ما كتب عنها باللغة العربية، على الرغم من الاهتمام النسبى الذى لاقته من قبل الباحثين فى الجامعات الأوروبية، وعلى رأس هؤلاء الباحثين مايكل كيل أبرز الباحثين فى العالم فى العمارة الإسلامية فى البلقان.

*** المساجد:**

شيد العثمانيون عددًا لا حصر له من المساجد فى المدن والقرى، وتركزت هذه المساجد فى الأسواق والأحياء والقلاع ومعسكرات الجيش، سنرحل إلى بعضها الذى ما زال باقيا إلى اليوم، وهذه المساجد شيدت وفق الطراز المعمارى العثمانى الذى نرى تطوره فى مساجد أدرنة وبورصة واستنبول. وقد شاع فى البوسنة نموذجان لتخطيط المساجد، الأول عبارة عن مسجد مكون من بيت للصلاة أمامه حرم عبارة عن صحن مكشوف يحيط به رواق عبارة عن بائكة مغطاة بقباب صغيرة، وضحلة. ويغطى بيت الصلاة قبة مركزية، وبصدره المنبر والمحراب ويدخل إلى المسجد عبر باب يفضى إلى داخله مباشرة. والنموذج الثانى عبارة عن مسجد مكون من بيت للصلاة مربع يحيط به رواق من ثلاث جهات ما عدا جدار القبلة. وبصدر بيت الصلاة محراب مجوف ومنبر. ويغطى بيت الصلاة قبة كبيرة بينما غطى الرواق بقباب صغيرة ضحلة. وللمسجد ثلاثة مداخل يقابلها ثلاثة مداخل بالأروقة. وهذه للحفاظ على طهارته. ومن الملاحظ حرص العثمانيين على تشييد مسجد جامع فى كل مدينة يفتحونها، فقد شيدت معظم مساجد البوسنة الأولى فى عهد فاتحها السلطان العثمانى محمد الفاتح وفى عهد السلطان بايزيد الثانى، وعرفت هذه المساجد فى الوقفيات وسجلات المحاكم الشرعية بالمساجد العتيقة. كما شيد العثمانيون المساجد فى القلاع لكى يؤدى الجنود الصلاة دون الحاجة إلى تركها للذهاب إلى المدينة لأداء الصلاة. فقد كانت القلاع فى البوسنة مؤسسات عسكرية متكاملة كما كان الحال فى قلعة صلاح الدين فى القاهرة وقلعة حلب وقلعة زبيد. ومن أبرز مساجد قلاع البوسنة، مسجد قلعة فراندوك وهى تقع شمال مدينة زنيستة، وتقع هذه القلعة على قمة جبل، واستخدمت فى بعض العصور كمقر للوك البوسنة، وحينما فتحت البوسنة على يد السلطان محمد الفاتح شيد فى هذه القلعة مسجدًا فيما بين سنتى ١٤٦٣ و ١٤٨١م. وكان موظفو هذه المساجد يصرفون مرتباتهم من خلال الإقطاعيات العسكرية ويرجح أن هذه المساجد شهدت فى مرحلة لاحقة إيقاف أوقاف عليها.

* مسجد السلطان:

شيد هذا المسجد فى سرايفو الغازى عيسى بك بن الغازى إسحاق بك، والذى حكم البوسنة فى الفترة من ٨٧٠: ٨٧٣هـ / ١٤٦٩: ١٤٦٦م. وقد سمى باسم السلطان محمد الفاتح تيمنا به، ولذا عرف باسم مسجد السلطان، والمسجد يتكون من بيت صلاة تسقفه قبة مركزية وألحق به حرم خارجى ومئذنته ترتفع حوالى ٤٧ مترا وتعد من أجمل مساجد البوسنة. وقد تعرض هذا المسجد لأضرار كبيرة نتيجة لحريق شب به عام ١٦٩٧م حينما قام الجيش النمساوى بتخريب وحرق سرايفو. وفى عام ١٧٧٩م تم تجديد المسجد على نفقة الوالى البوسنى عبد الله باشا. وفى القرن التاسع عشر فى عهد فاضل باشا المدير المسئول عن المسجد وبناء على أمر السلطان عبد الحميد سنة ١٨٤٨ أجريت توسعات فى المسجد حيث تم تشييد رواق فى المقدمة وتزويده بأرائك. وفى عام ١٨٥٣/١٨٥٤م تم إقامة أول ساعة للمواقيت فى سرايفو بالمسجد، وقد أكمل تشييدها الوالى مصطفى عاصم باشا فى عام ١٨٧٢ الذى أجرى صيانة شاملة للمسجد. وتزخر جدران المسجد بلوحات فنية رائعة تعكس طبيعة الحياة فى البوسنة والرؤية الإسلامية لفن التصوير. ولهذه اللوحات شهرة خاصة بين مؤرخى الفنون العثمانية.

* مسجد الغازى خسرو بك:

يقع هذا المسجد فى قلب مدينة سرايفو، ويعد أكبر مساجد البوسنة على وجه الإطلاق، شيد هذا المسجد الغازى خسرو بك الذى حكم البوسنة فى الفترة من ٩٢٨ - ٩٤٧هـ / ١٥٢١ - ١٥٤١م، لم يقطع هذه الفترة سوى ولاية حسن بك من ٩٤٠ ٩٤٢هـ / ١٥٣٣ - ١٥٣٦م.

يعتبر هذا الجامع من أكبر مساجد البونسة وأكثرها روعة من الناحية المعمارية، وقد أنشئ فى سنة ٩٣٧هـ / ١٥٣٠م، ووقفية هذا الجامع تعتبر من أفضل الوقفيات البوسنية التى تنظم عمل مؤسسة دينية وكيفية الإدارة الاقتصادية للمنشآت ذات الريع الموقوفة على المسجد وغيره من المنشآت الخيرية للغازى خسرو بك، ومما جاء فى هذه الوقفية بخصوص موظفى المسجد، ما يخص الإمام الذى يؤم الناس فى الصلوات وخطيب المسجد، حيث اشترك الواقف (أن يكون الخطيب والإمام قارئا للقرآن عالما بشروط الصلاة والخطبة صالحا عارفا بمقتضى السنة النبوية.. فالحافظ لكلام الله هو أولى وأرجح، وألاّ يكون خداما للولاة والحكام لئلا تفوت المواظبة..) وقد جاء فى الوقفية تعين مؤذنين فى الجامع براتب قدره درهمان يوميا، وأربعة حفاظ للقرآن يتلون القرآن يوم الجمعة لكل واحد منهم ثلاثة دراهم ولرئيس القراء خمسة دراهم. ولوقد السراج وشمع القناديل فى أوقاتها ومحلها كل يوم ثلاثة دراهم.

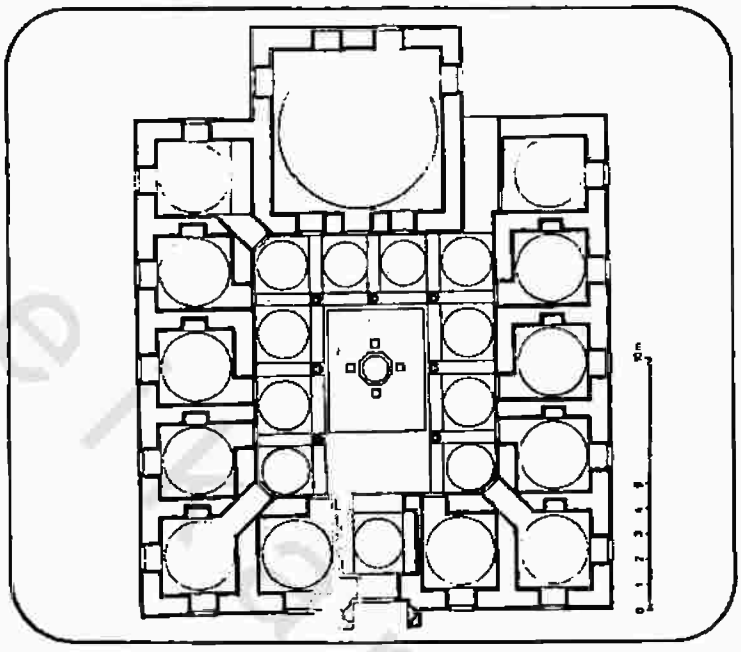

رسم قطعى لمدرسة الغازى

شكل رقم (٢٩) : العمارة فى البوسنة والهرسك.

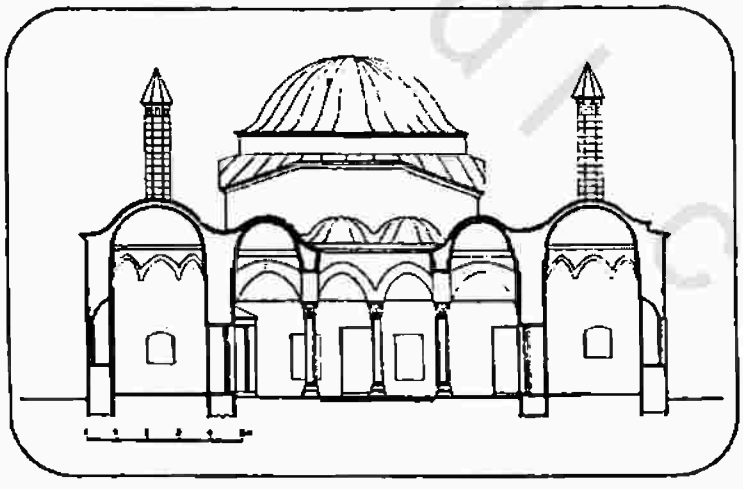

تخطيط مدرسة الغازى خسرو بك

شكل رقم (٣٠) : العمارة فى البوسنة والهرسك.

ولتوفير المياه للمسجد مد الغازى خسرو أنابيب المياه من عين تسرنيلو التى تبعد عن سـرايفو حوالى سبعة كيلومترات. ولتوفير الصيانة المستمرة لهذه الأنابيب حدد الواقف درهمين يوميا فى وقفيته لصيانتها.

يقودنا مسجد الغازى خسرو بك إلى الحديث عن أوقاف فيروز بك الذى تولى حكم البوسنة فى الفترة من ١٥٠٥ - ١٥١٣م، حيث شيد مسجدا ومدرسة وحماما للرجال وآخر للنساء ولقد زودت هذه المجموعة المعمارية بالمياه بأنابيب تمتد من عين سدرنك إليها.

*** مسجد فرهاد باشا:**

تولى فرهاد باشا حكم البوسنة فى سنة ٩٨٨هـ / ١٥٨١م، ولعب دورا كبيرا فى عمران مدينة بانيالوقة يوازى الدور الذى لعبه الغازى خسرو بك فى سرايفو، ويعد جامع فرهاد فى بانيالوقة من أروع مساجد البوسنة فى القرن السادس عشر الميلادى، وقد سقف المسجد بقبة كبيرة ترتكز على قاعدة مربعة أبعادها ١٢ × ١٢م، شيدت هذه القبة من الحجر إلا أنها انهارت، وأقيمت عوضا عنها عند إصلاح المسجد قبة من الخشب. ومئذنة الجامع مشيده من الحجر ويبلغ ارتفاعها ٢٧ متر تقريبا وسبب الارتباط المعمارى بين المسجد والمئذنة فى منطقة معرضة للزلازل إلى إحداث أضرار بالمبنى والمئذنة وسبب هبوط فى أرض المسجد إلى إحداث ميل شديد بالمئذنة. وأنشأ فرهاد باشا فى حرم المسجد ميضأة مد إليها المياه من خلال الأنابيب. كما شيد بالمسجد ساعة خصص لصيانتها وتحديد مواقيت الصلاة موظفا يتقاضى ثلاثة دراهم يوميا وقد تبقى جزء من برج هذه الساعة.

ورتب الواقف طريقة العمل فى المؤسسة من خلال وقفيته فعين إمام الجامع وراتبه حد عشر درهما يوميا، وخطيبا للجامع وراتبه واحد وعشرون درهما يوميا، مؤذن للجامع راتبه ثمانية دراهم يوميا، ومؤذن آخر راتبه سبعة دراهم يوميا. ولم يكن المسجد لأداء الصلوات فحسب بل رتب به دروسا لعلم الحديث. وحرص فرهاد باشا على توفير الصيانة الدائمة لمسجده من خلال تخصيص موظف يهتم بتعميره وإصلاحه، وقد دفن فرهاد باشا فى حرم المسجد.

*** مسجد الأرناؤوطية:**

وهو أحد مساجد بانيالوقة. يعرف هذا الجامع أيضا بجامع الدفتردار، نسبة إلى حسن أفندى الأرناؤوطى دفتر دار المجاهد الغازى فرحات باشا، وأقرب المقربين إليه، ومدخل هذا الجامع بديع جدا وله باب مكون من مصراعين مزخرفين وهو بحالة سيئة الآن، أعلاه نص تأسيس المسجد كتب على هيئة أبيات شعرية توجه المديح للمنشىء الذى ابتغى مرضاة الله

تعالى وطمعا فى رحمته وعفوه ونيل ثنائه، كما تضمن اسم الجامع وتاريخ إنشائه بحساب الجمل سنة١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤ - ١٥٩٥م. وللجامع مئذنة يبلغ ارتفاعها ٢٦ مترا، وهى ذات شرفة واحدة. وللمسجد مئذنة أخرى صغيرة كان المؤذن يرفع منها أذان العشاء فقط أوفى حالة تأخره فى الصعود إلى المئذنة الكبيرة للأذان.

*** مسجد حمزة بك:**

يقع هذا المسجد فى مدينة فوجة، وهو أقدم منشأة إسلامية بها، أنشأه حمزة بك حين كان واليا على البوسنة بين سنتى ١٤٧٠ - ١٤٧٧م، وتذكر المصادر أنه فى عام ١٤٧٧م كان فى فوجة ثلاث عائلات مسلمة فقط، فيحتمل أن هذا المسجد شيد لخدمة الجيش العثمانى فى هذه المدينة. ومن حيث بنائه فهو مسجد متواضع صغير بنى من الحجر ومئذنته من الخشب. وبجوار المسجد شيد حمزة بك حماماً. كانت موارد الحمام يصرف منها على المسجد. ومد حمزة بك أنابيب مياه من عيون خارج المدينة لإمداد المسجد والحمام بالمياه النقية.

*** جامع نذير آغا:**

يقع هذا الجامع فى مدينة موستار، وهو أقدم مساجد جنوب شرق المدينة، شيده نذير آغا سنة ٩٣٥هـ / ١٥١٨م، على مرتفع إلى الشرق من نهر نبريتفا وهو يشرف على وادى رادوبوليا. تعرض الجامع للدمار شأنه شأن غيره من الجوامع التى استهدفها الاحتلال النمساوى المجرى، ثم تعرضت للإهمال تحت هيمنة اليوغسلاف من الصرب والكروات فأغلق الجامع سنة ١٩٣٢ن ثم دمر سنة ١٩٥٠م بعدما أعاد إعماره الثرى الموستارى صالح جنيد بك الذى عرف بترميم الآثار الإسلامية.

وبعد قيام حرب البوسنة الأخيرة وتهدم معظم مساجد موستار، وما أعقب هذه الحرب من حرب باردة من قبل مسلمى وكراوات موستار لإحياء هوية المدينة سواء المسيحية التى سعت الدول الأوربية إلى إحيائها من خلال دعم بناء الكنائس القديمة، أم الإسلامية فقد مولت العديد من الدول الإسلامية عمليات إعادة بناء وترميم المساجد التراثية فى موستار، ومنها الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية والكويت وتركيا. وموّل الشيخ سلطان القاسمى عملية إعادة بناء مسجد نذير آغا موستار التى بدأت عام ١٩٩٨م. واعتمد المهندسون فى عملية إعادة بناء الجامع على الصور القديمة التى تعود إلى عام ١٩٠٥ أيام العثمانيين وسنة ١٩٠٨ وصور تعود إلى عام ١٩٣٠ بعد رحيل العثمانيين. وهكذا استعاد جامع نذير آغا هويته كما كانت فى

مطلع القرن العشرين وتجلت للناظرين مئذنته بارتفاع ٢٧ مترا وسقفه الجمالونى، ورواقه الذى يرتكز على ١٢ عمودًا خشبيا.

*** مصلى العيد:**

كان لسنة رسول الله ﷺ أثرها الواضح فى اشتمال المدن الإسلامية على ساحة فضاء، تقام بها صلاة العيد فى الخلاء، عرفت بـ (مصلى العيد) يخرج إليها أهل المدينة كلهم فى فرحة عارمة بالعيد ليشارك بعضهم بعضا هذه الفرحة. وفى البوسنة انتشرت مصليات العيد ومنها مصلى موستار الذى ورد ذكره عند الرحالة العثمانى أوليا شلبى، فقد صلى فيه العيد سنة ١٦٦٤. وتتخذ موقعا لها بجوار أحد المساجد ولها فناء داخلى محاط من جهاته الأربع بخلاوى الطلبة والأساتذة وحجرات التدريس، وتعد مدرسة الغازى خسرو بك أبرز نموذج فى البوسنة لهذا النظام المعمارى. ولم يعرف إلى الآن مهندس هذه المدرسة إلا أن تصميمها يوحى بأنه كان مهندسا معماريا ممتازا خبيرا بمهنته عليما بحرفته، فقد ملك ناصية المبادئ الجمالية والهندسة لفن المعمار العثمانى. وقد كان متأثرا بمدرسة عاتق باشا باستنبول.

والمدرسة شيدت فى مواجهة مسجد الغازى خسرو بك ويتوسط الواجهة الرئيسية للمدرسة المدخل ويتوجه عقد مدبب مزخرف بالمقرنصات، وهو يذكرنا بعقد مدخل مدرسة أم السلطان شعبان فى القاهرة، وكلاهما متأثر بمداخل العمائر السلجوقية. والمدخل صمم بشكل زخرفى مبهر وكأنما أريد به لفت الانتباه إلى أهمية البناية، ويحتوى المدخل على كتابات تقرأ كما يلى (شيد هذا المبنى من أجل أولئك الذين يطلبون العلم) ويبدو للمار من أمام المدرسة القباب الصغيرة التى تسقف خلاوى الطلبة وكذلك القبة الكبيرة التى تسقف حجرة الدرس، وبين هذه القباب تظهر مداخن الدافأ الموجودة فى حجرات الطلبة. وهى ذات قمم مدببة. والقبة الكبيرة تربط كل هذا فى تناسق وانسجام. ويلى المدخل ممر يفضى إلى الفناء الذى يتوسط المدرسة، وهذا الفناء تلتف حوله خلاوى الطلبة، ويتقدم هذه الخلاوى ممر يطل على الفناء ببائكة معقودة ترتكز على سبعة أعمدة. والعلاقة بين فناء المدرسة والسماء الزرقاء تستحث الإنسان على التأمل والتفكير إلى ما لا نهاية حيث إن كل هذا الجو المحيط والجمال المتناسق يثير لدى الزائر حالة نفسية خاصة وانطباعا بجدية المكان. ويتوسط الفناء نافورة صغيرة تبهج الناظرين، وهذا يظهر تناسق المكان ويستشعر المرء ألفة غير عادية، وفى مواجهة مدخل المدرسة توجد حجرة التدريس.

ولهذه المدرسة وقفية حدد فيها الغازى خسرو بك نقاطا عديدة هامة بالنسبة لنظام العمل بها، وقد صدقت المحكمة الشرعية فى السادس من رجب عام ٩٤٣هـ الموافق الثامن من يناير

١٥٣٧م عليها. وفيها أوقف الغازى خسرو بك لهذه المدرسة عدة عقارات فى سرايفو، ومن ريع هذه العقارات تم إدارة المدرسة.

أما موظفو هذه المدرسة فهم:

المدرس: الذى وصفته الوقفية بأنه لابد أن يكون (عاما فاضلا كامل تحرير.. جامع الفروع والأصول حاوى المعقول والمنقول) وحدد لهذا المدرس راتبًا قدره خمسون درهما يوميا وعليه بجانب وظيفة التدريس أن يفتى الناس فى مدينة سرايفو ويكون ناظرا على أوقاف خسرو بك.

العيد: ومهمته مساعدة المدرس فى عمله وراتبه اليومى أربعة دراهم

اشترط الغازى خسرو بك فى وقفيته على الطلبة أن يهتموا بدراستهم ويكونوا مجتهدين فى محاضراتهم المقررة. ولا يجوز أن تفوتهم دروسهم إلا بعذر شرعى. وعين الواقف للطلبة كل يوم درهمين مع حق الطعام.

*** مدرسة كمال بك:**

بنيت هذه المدرسة فى سرايفو قبل سنة ١٥٣٩م، وقدرت تكاليف بنائها بما يزيد على ثلاثين ألف درهم. كانت تشتمل على اثنتى عشرة خلوة للطلبة وقاعة للتدريس. وعين الواقف منحة دراسية من درهم إلى ستة دراهم لكل طالب. وللإنفاق على المدرسة حبس كمال بك اثنين وعشرين ألف درهم تعمل مرابحة. أما برنامج التدريس بها فقد كان يشتمل على تدريس علم أصول الفقه والحديث الشريف وعلومه وتفسير القرآن الكريم وغيرها من العلوم.

*** المسافر خانة:**

تعد المسافر خانة بناء يجد فيه المسافر لنفسه مبيتا وكانا مكانا يضع فيه مطيته ويتناول فيه طعام لوقت معين، كان فى الغالب لا يتجاوز ثلاثة الأيام. وحددت لنا وقفية عيسى بك التى تعود إلى ما قبل سنة ١٤٦٢م. واحدة من هذه المنشآت فذكرتها كما يلى: قد بنى (عيسى بك) منزلا على هيئة الزاوية مشتملة على ثلاثة بيوت وإسطبل وحرم وما يليق بها فى داخل قرية (برودجة) من أعمال سراى بوسنة، وتصدق فى حال حياته على أن يكون زاوية ومسكنا للفقراء المسلمين من طلبة العلم والسادات والغزاة وأبناء السبيل .. ويطبخ اللحم والأرز والخبز بقدر ما يكفى والدهن بقدر الحاجة والمرق لهم إلى ثلاثة أيام ولا يسكنون أكثر من ثلاثة أيام).

وأنشأ الغازى خسرو بك فى الجانب الغربى من جامعه فى سرايفو دارا للمسافرين كانت مكونة من أربع غرف، وتحتها إسطبل للدواب وألحق بالدار عمارة بها مطبخ وخزن. وكان من حق أى مسافر من المسافرين أن ينزل لمدة قصيرة فى هذه الزاوية التى خصصها الواقف لسائر أبناء السبيل. وبجانب الطعام المجانى الذى كان يقدم للمسافرين عين الواقف ثلاثين درهما لإكرام المسافرين، وفى سبيل حسن استقبال المسافر كان يقدم له حين قدومه عسل وخبز. ومن موظفى ومستخدمة دار المسافرين والعمارة شيخ العمارة وكاتبان ووكيل المخزن وطباخان ثم عين الواقف مصرفا للعمارة المذكورة بحيث يطبخ فيها طعام جيد بخاصة فى أيام الجمع والأعياد وشهر رمضان وغيرها.

صورة رقم (٦١): مدرسة الغازى خسرو بيك سرايفو.

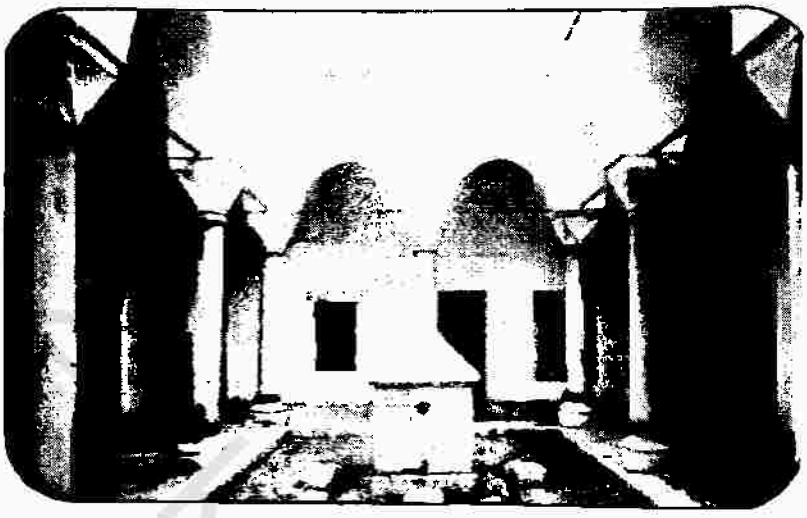

صورة رقم (٦٢): الفناء الداخلى لمدرسة الغازى خسرو بيك.

صورة رقم (٦٢) : مدينة موستار بالبوسنة والهرسك.

obeikandl.com

العمارة الإسلامية فى قبرص

تمثل قبرص أكثر جزر البحر المتوسط ارتباطا بالعالم الإسلامى لوقوعها فى المجال الجغرافى الحيوى لدول شرق البحر المتوسط ومنها مصر وسورية وتركيا ولبنان وفلسطين. ولذا ارتبط تاريخها بتاريخ هذه الدول. فهى لم تكن سوى حجر المرتقى لكل من يقصد هذه الدول. ومن هنا جاءت أهميتها وارتباطها بهذه البلاد، وبالإمبراطوريات والدول التى حكمتها بل وبالحضارة الغالبة فى حوض البحر المتوسط، يفسر هذا الازدواجية الحضارية الحالية لقبرص، هذه الازدواجية الناتجة عن الموقع المحورى بين حضارات كبرى. ويعكس هذا الفن اليدوى الذى تقدمه قبرص للسائحين، خاصة عن الخزف، فأحد أشهر الأطباق الخزفية القبرصية تتضمن زخارفه شجرة الحياة التى تتوسط ديكين، وهو تأثير ساسانى إسلامى وسط زخارف نباتية إسلامية بين عناصر محلية، محلاة بفن التذهيب الذى ابتكره المسلمون، وبعض الزخارف تحمل ألوانا عثمانية الابتكار.

كانت أول علاقة للمسلمين بقبرص من خلال غزوة قام بها معاوية بن أبى سفيان بإذن من الخليفة عثمان بن عفان. وكان سبب هذه الغزوة اتخاذ البيزنطيين قبرص قاعدة للهجوم على سواحل بلاد الشام. ورافق معاوية فى هذا الغزوة عبادة بن الصامت مع امرأته أم حرام بنت ملحان التى ما زال قبرها موجودا إلى اليوم بالقرب من مطار لارنكا الدولى. ودخلت قبرص منذ ذلك التاريخ تحت طاعة المسلمين وأدى أهلها الجزية. وفى نفس الوقت ظلوا يؤدون للروم تلك الجزية، فكأن الجزيرة أصبحت تابعة للروم والمسلمين فى نفس الوقت. لكن غزو قبرص الحقيقى كان سنة ٣٤ أو ٣٥ هـ / ٦٥٤ - ٦٥٥م عندما نقض أهل قبرص العهد وساعدوا البيزنطيين على المسلمين، فغزاهم معاوية فى اثنى عشر ألفا كلهم من أهل الديوان فى جيش بقيادة موسى بن نصير الذى شيد بها حصون منها حصن يابس وحصن الماغوصة (فماغوستا) ظل أهلها ملتزمين بشروط الصلح إلى أن توفى معاوية سنة ٦٠هـ/٦٨٠م. ونقل إليها جماعة من أهل بعلبك فبنوا المساجد، وكثر فيها المسلمون، وبنوا مدينة. فلما جاء يزيد بن معاوية أعاد المسلمين وهدم المدينة فأنكر المسلمون ذلك، فردهم إلى الجزيرة يزيد بن عبد الملك. ثم غزاهم حميد بن معيوب الهمدانى فى عهد هارون الرشيد. وظلت السيادة على الجزيرة تتراوح بين المسلمين والبيزنطيين. وكان لها دور بارز أثناء الحروب الصليبية.

ظلت جزيرة قبرص قاعدة صليبية تهدد أمن المسلمين، وقد أقطعها ريتشارد قلب الأسد لجى دى لوزنيان فأنشأ فيها مملكة صليبية كرست كل جهودها لحرب المسلمين ومعاونة الصليبيين،

وكان الكثيرون من مقاتلى الصليبيين يلجئون إليها بعد سقوط قواعدهم فى الشام. ولهجماتهم المستمرة على الشواطئ الإسلامية خاصة شاطئ الإسكندرية. وهو ما ترتب عليه هجوم المماليك على قبرص فى غزوات متعددة إلى أن استولى عليها المماليك الجراكسة فى عهد السلطان الأشرف برسباى سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م. وخضعت الجزيرة لسيطرة البنادقة إلى أن فتحها العثمانيون سنة ١٥٧٠م. وكان أهلها عبيدا للبنادقة فقد كانت أرضها ملكا للبنادقة والفرنسيين وبعد دخول العثمانيين أعادوا للكنيسة الأرثوذكسية اعتبارها بعد أن تعرضت لضغوط شديدة من البنادقة الكاثوليك. كما وزعت الأراضى الزراعية على القبارصة. وتكونت فى قبرص جالية عثمانية كبيرة وقد أسلم بعض أهلها. وظلت قبرص تحت السيطرة العثمانية إلى سنة ١٨٧٨م حين تخلت عن إدارة الجزيرة للإنجليز تحت السيادة العثمانية ولكن مع الحرب العالمية الأولى ووقوف تركيا ضد الإنجليز أعلنت سيطرتها على الجزيرة التى استقلت سنة ١٩٦٠م ونظرا لوقف القبارصة الأرثوذكس المعادى لمسلمى قبرص احتلت تركيا قسما من الجزيرة سنة ١٩٧٤، وأعلنت على هذا القسم سنة ١٩٨٣م جمهورية قبرص التركية.

مساجد قبرص

أصبح من المؤكد أنه كان فى قبرص مساجد فى العصر الأموى وكذلك مساجد فى العصر المملوكى. ولكن لا يوجد أى أثر حاليا لهذه المساجد. ومن المرجح أن بعضها قد أزيل أو حول إلى كنائس فى أعقاب انحسار النفوذ الإسلامى عن الجزيرة. وقد يؤدى أعمال الكشف الأثرى فى الجزيرة خلال السنوات القادمة إلى الكشف عن آثار إسلامية تتعلق بالفترة من العصر الأموى إلى العصر المملوكى.

وقد تبقى فى الجزيرة العديد من المساجد التى تعود إلى العصر العثمانى، لعل أبرزها مجموعة من المساجد التى كانت فى الأصل كنائس مهجورة، مثل كاتدرائية جوتيك آيا صوفيا، التى تحولت إلى مسجد السليمية بعد أن تمت صيانته معماريا وإضافة مئذنتين إليه، ومحراب ومنبر فى داخله. وتزخر مدينة لفكوشا بعدد كبير من المساجد منها مسجد ابليك بازارى: أنشىء هذا الجامع فى القرن الثامن عشر الميلادى. ويوجد حول مدخل قاعة الصلاة به إزاران من الكتابات بالإزار الأسفل: مدون عليه تاريخ تجديد الجامع عام ١٨٩٩م. ويعود الفضل لوقف المسجد فى أعمال الصيانة المستمرة به، وهذا ما بينته كتابات الإزار الأعلى حيث أثبت به ناظر الوقف قيامه بأعمال الترميم.

جامع أحمد العربى: أنشىء هذا الجامع فى القرن السادس عشر وتغطى قاعة الصلاة به قبة قطرها ١١ مترا تقريبا محمولة على ثمانية أكتاف وتوجد فى أركان القاعة أنصاف قباب تكمل تسقيف قاعة الصلاة ويتقدم مدخل المسجد رواق مغطى بثلاث قباب صغيرة يفتح هذا الرواق على صحن المسجد الذى تتوسطه فسقية للوضوء.

أما جامع البيرقدار فقد كان من أبرز مساجد قبرص من حيث الطراز المعمارى. فقد شيد هذا المسجد سنة ١٨٢٠ تخليدا لذكرى البيرقدار الذى استشهد عام ١٥٧٠م. والمسجد من الداخل مقسم إلى بلاطتين بواسطة بائكة تتكون من ثلاثة عقود، وسقف المسجد من الخشب. دمر هذا المسجد سنة ١٩٦٢م نتيجة للقصف اليونانى المتعمد نظرا لرمزية المساجد الدينية لدى مسلمى قبرص.

التكايا

تعد التكايا من منشآت إقامة المتصوفة والزاهدين فى الحضارة الإسلامية، كان لدراويش هذه التكايا فى عصور ازدهارها دور إيجابى فى نشر الدين الإسلامى فى قبرص، ومن أبرز التكايا الباقية فى قبرص تكية المولوية. «مولوخانة»، وهم فرقة من الدراويش كانت لهم طقوس خاصة. شيدت هذه التكية فى القرن السابع عشر الميلادى. على أرض أوقفتها السلطانة على الدراويش، وما زال باقيا فى دمشق والقاهرة تكيتين للمولوية تعودان للعصر العثمانى. لعبت هذه التكية دورًا سياسيا إذ منها كانت أخبار الجزيرة تنتقل سرا إلى السلطان. وهو بذلك كان يستطيع مراقبة ما يجرى بها من أحداث سواء من قبل الحكام أم المحكومين. فقدمت هذه التكية الكثير من معالمها المعمارية، ومسرح الدراويش بها بحالة جيدة وهو مسرح دائرى الشكل يتناسب مع رقصات الدراويش. ويستغل حاليا كمتحف للفن التركى. والتكايا ما زال باقيا منها مجموعة من الغرف المتجاورة وعددها ثمان تطل على الشارع، وهى مسقوفة بقباب صغيرة. ومن المحتمل أن هناك أجزاء أخرى من التكية ما زالت باقية ولكن التجديدات المتوالية على التكية جعلت من الصعب تحديد الأجزاء الأصلية. وإن كانت وثيقة وقف التكية المحفوظة فى استنبول قد تكشف عن باقى أجزاء التكية فضلا عن الدراسات المعمارية المقارنة مع التكايا المماثلة فى المدن الإسلامية. ويوجد فى الفناء الداخلى للتكية العديد من شواهد القبور الرخامية للدراويش وبعض الشخصيات الإسلامية القبرصية الهامة والتى تكشف دراستها الأولية عن طبيعة الحياة الاجتماعية بالتكية.

تكية العزيزية:

أنشأ هذه التكية السلطان سليم الثانى فى القرن السادس عشر الميلادى، شيدت هذه التكية إلى جوار مدفن عزيز أفندى مفتى نيقوسيا الذى استشهد سنة ١٥٧٠م. وقد ألحق بها مسجد صغير وغرف لإقامة الصوفية.

المدارس

تعد المدارس أحد أهم المنشآت المعمارية الإسلامية فى قبرص، وكان لها دور هام فى تخريج رجال الدين وموظفى الدولة. ومن أبرز مدارس قبرص المدرسة الكبرى التى شيدها السلطان

محمود فيما بين سنتى ١٨٢٧ : ١٨٢٨م. يتكون تخطيط هذه المدرسة من صحن أوسط مكشوف مربع تتوسطه حديقة بها بحرة أو ميضأة يسقفها سقف خشبى تتوسطه قبة خشبية ذات نقوش زيتية ملونة. وحول الصحن أربع ظلات تطل على الصحن ببوائك معقودة، ويتخلل الظلة الجنوبية الشرقية مسجد صغير، ويفتح على الظلات خلاوى للطلبة تطل نوافذها على الشوارع المحيطة بالمدرسة. تعرف هذه المدرسة فى قبرص بالمدرسة الكبرى لوجود مدرسة أخرى تقع إلى الشمال منها تعرف بالمدرسة الصغرى. ومن مدارس قبرص الأخرى مدرسة أحمد باشا العربى ومدرسة الحاج منير أفندى. ومعظم هذه المدارس مهدمة حاليا.

الحمامات

تعد الحمامات العثمانية من أجمل الآثار الباقية فى قبرص، وهى تستخدم فى التطهر، وفى المناسبات الاجتماعية مثل حفلات الزواج حيث كانت العروس تستحم فى ليلة زفافها فى الحمام الخاص بالنساء أو فى الأوقات المخصصة للنساء فى الحمامات التى كانت تستخدم للرجال والنساء. ويعد الحمام الكبير فى نيقوسيا من أشهر حمامات قبرص وسقطه يشبه الحمامات العثمانية التقليدية إلا أن باب مدخله يعود للعهد الفينيسى. ويتكون تخطيط المنطقة الباردة للحمام من دور قاعة وسطى مغطاة بقبة. ويفتح على الدور قاعة أربعة إيوانات مقببة وأربع غرف ركنية مغطاة بقباب ضحلة، أما المنطقة الدافئة فتتكون من مساحة مربعة مسقفة بسقف خشبى محمول على عقدين، وهى ظاهرة رأيناها فى مساجد قبرص. وتقع المنطقة الساخنة بين المنطقتين السابقتين وهى تنخفض عن مستوى الشارع بستة أقدام وبها أحواضٌ للمياه الساخنة. يعد حمام أوميرج الذى يقع اليوم فى المنطقة اليونانية من نيقوسيا مشابها للحمام الكبير من حيث المسقط ما عدا سقف المنطقة الدافئة المغطى بمثمن. ومن أطرف حمامات نيقوسيا حمام الأمير، وهو يقع فى المنطقة التركية من المدينة. هذا الحمام مخصص للسيدات فقط، وتخطيط المنطقة الباردة منه يتكون من دور قاعة مسقفة بقبو يفتح عليها إيوانان مسقفان بقباب ضحلة، أما المنطقة الدافئة فمغطاه من فراغين مقبُوَيْن، أما المنطقة الساخنة فهى عبارة عن فراغ مربع مغطى بسقف خشبى

الخانات

تمثل الخانات مراكز لتجمع التجار الزوار للمدن الإسلامية، ووجودها مؤشر على مدى الحركة التجارية فى أى مدينة. وفى نيقوسيا يوجد عدد من الخانات العثمانية، من أبرزها الخان الكبير، يقع هذا الخان فى وسط المدينة، شيده والى قبرص العثمانى مظفر باشا سنة ١٥٧٢م، وهو يتكون من طابقين، الطابق الأول منهما به حواصل تفتح على الفناء الأوسط للخان، يتقدم هذه الحواصل بوائك معقودة، ويتوسط الفناء مسجد، ويفتح الخان على الشارع

بمحلات، وللخان مدخلان أحدهما مسدود حاليا. وثانى خانات قبرص أهمية خان القومارجى، بنى هذا الخان فى أواخر القرن السادس عشر الميلادى، وهو يشبه الخان الكبير إلا أن طابقه الثانى مبنى من الخشب وليس من الحجارة كما فى الخان الكبير.

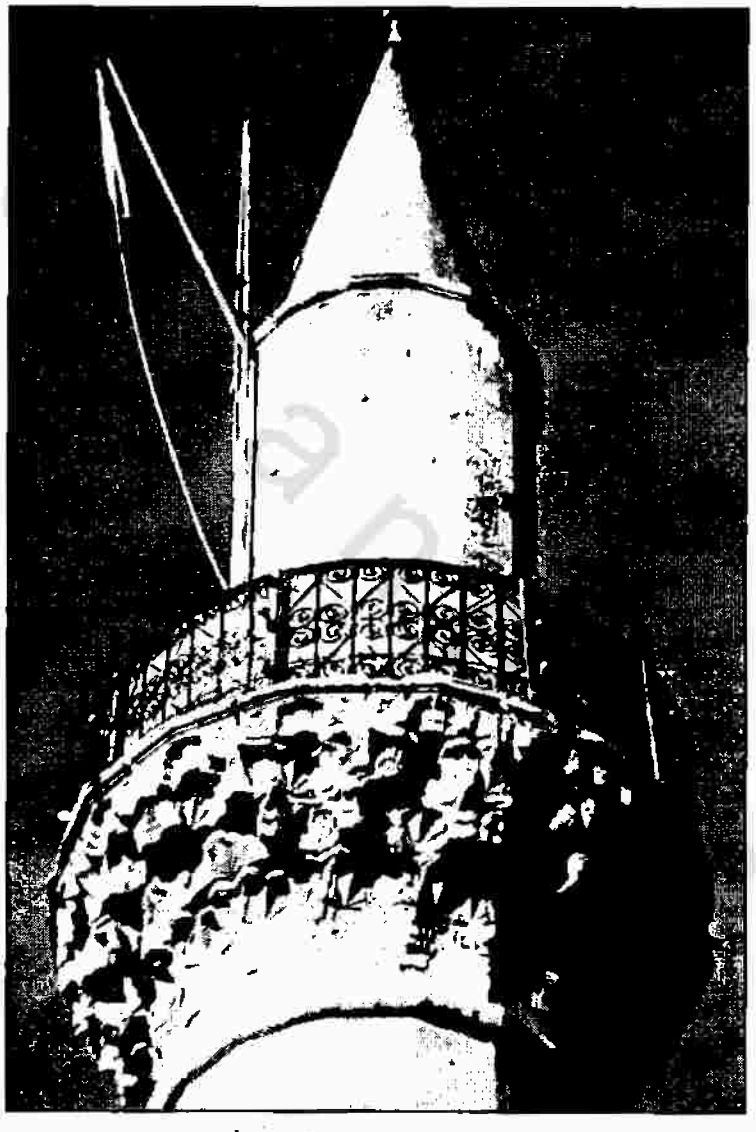

صورة رقم (٦٤) : منارة مسجد عرب أحمد.

صورة رقم (٦٥) : منزل وسبيل فى لفكوشا بقبرص.

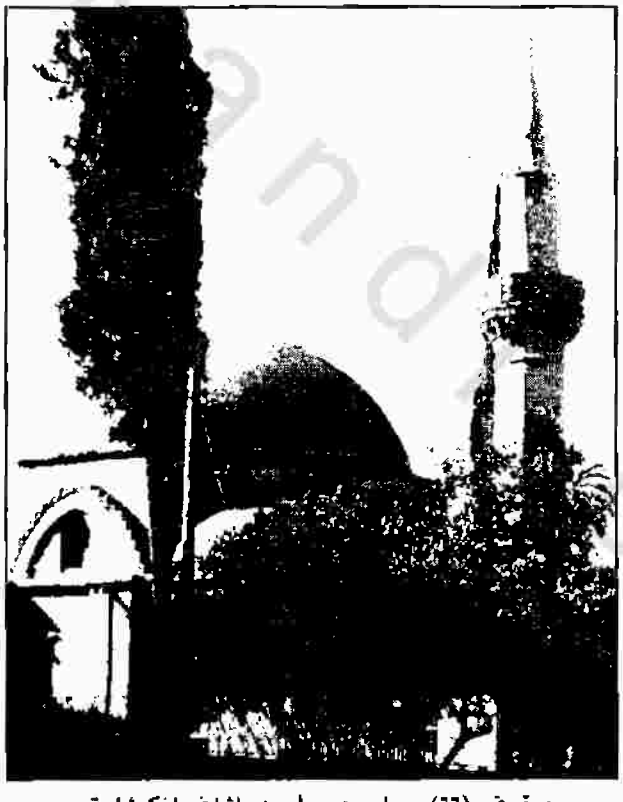

صورة رقم (٦٦) : جامع عرب أحمد باشا فى لفكوشا بقبرص.

العمارة الإسلامية فى بخارى

امتازت العمارة بمدينة بخارى بالعديد من المميزات المعمارية التى جعلتها متحفًا حيًّا للعمارة الإسلامية، وجاء التنوع فى المنشآت الباقية بالمدينة ليضفى عليها ثراءً معماريًا. وقلما اهتم الباحثون العرب بدراسة هذه الآثار المعمارية الرائعة.

وصفت بخارى فى القرن التاسع عشر بأنها من أعظم مدن آسيا وقاعدة خانية بخارى، سكانها ١٠٠٠٠٠ وقيل يبلغون ١٥٠٠٠٠ وهى فى وسط سهل خصب يحيط بها سور ذو بروج وله ١١ بابا ويبلغ محيطه من ١٢ إلى ١٤ كم وارتفاعه ٨ أمتار فى سمك مثله. وفيها كثير من الأبنية الحسنة و ٢٦٠ جامعا ومسجدا أو نحو ذلك و ١١٣ مدرسة يدرس فى بعضها الفقه والحديث والطب. وفيها ٢٨ خانا و ١٥ سوقا و ١٦ حماما و ٦٨ بئرا للمياه وهذه الآبار كثيرة الطول والعرض قليلة العمق وأحسن جوامعها جامع فى ساحة راجستان أمام قصر الخان مساحة موضعه ١٠٠ متر وعلو قبته ٦٠م. وفى وسط المدينة رابية تسمى تومشكند يبلغ علوها من ٦٧ إلى ٨٠ مترا ويحيط بها جدار وعليها قصر الخان وهو قديم بنى منذ عشرة قرون أو أكثر وجامع، وهى مركز حكم المدينة. وفى بخارى معامل لنسج القطن وحوك الطواقى واصطناع ورق الحرير وهو معروف عندهم من سنة ٦٥٠م ومعامل للأسلحة ونقش الأقمشة وغير ذلك وفيها تجارات واسعة إلى روسيا وإيران وكابل وغيرها[1].

هكذا وصفت بخارى قبيل السيطرة الروسية عليها. ونستطيع أن نستقرئ من هذا الوصف أن المدينة ظلت محتفظة بطابعها المعمارى الإسلامى إلى ذلك الوقت.

تكونت بخارى كباقى مدن بلاد ما وراء النهر من مدينتين واحدة داخلية ويضمها سور داخلى يحوى أهم منشآت المدينة الدينية والإدارية والتجارية وسور خارجى يضم أرباض المدينة وبين الاثنين القلعة التى تضم قصر الحكم ويطلق عليها فى بلاد ما وراء النهر القهندز. ويطلق على القسم الداخلى من المدينة الشهرستان، ويقع القسم الداخلى والقلعة على مرتفع من المدينة، وأبواب الشهرستان يبلغ عددها سبعا كان أشهرها بابا القلعة، الباب الجديد، باب العطارين، باب السوق. أما سور الربض أو السور الخارجى فقد بنى فى العهد الإسلامى فى عام ٢٣٥هـ / ٨٥٠م، وكان كما هو الحال مع أسوار المدينة التى ظل جزء كبير منها باقيا مكونا من أحد عشر بابا، هى قراقول، شيخ جلال، نمازكاه، سلحانة، كوله، مزار، سمرقند، إمام، أوغلان، طليج، شيركيران. هذا السور أعاد بناءه أرسلان خان محمد فى القرن ١٢م. ثم أعاد

(١) سليم فورى وسليم شحادة، آثار الادهار، جـ ١، ص ٧١٦، ٧١٨، ٧١٩، ٧٢٠ بيروت ١٨٧٥م.

بناءه فيما بعد قليج طمغاج خان مسعود عام ٥٦٠هـ / ١١٦٥م، وفى بداية القرن الثالث عشر أعد بناءه خوارزم شاه محمد، وقد زودت المدينة بشبكة من قنوات المياه لرى أراضيها وتوفير مياه الشرب بها وذلك من قناة رئيسية تعرف باسم رودزر أى نهر الذهب، تخرج منها مجموعة من القنوات الصغيرة تتشعب داخل المدينة لتوفر احتياجاتها من المياه[1].

• أسواق بخارى

يعتبر سوق لابى خاوز أقدم أسواق بخارى التى مازالت باقية إلى الآن، وسمى هذا السوق على اسم بركة مياه يبلغ طولها ٤٢ مترًا وعرضها ٣٦ مترا، وعمقها ٥ أمتار، حفرت عام ١٦٢٠م وأعيدت منذ سنوات قليلة إلى حالتها الأصلية، ويحيط بهذا السوق مجموعة من المبانى الرائعة منها نادر ديوان بيجى خانقاه، مضيفة الحجاج، وقد بنيت على الجانب الغربى عام ١٦٢٠ وكانت قد أعدت لاستقبال حجاج بيت الله الحرام فى رحلته الطويلة والشاقة سواء من البلاد التى تقع إلى الشرق من بخارى أم بالقرب منها، ومدرسة كوكلداش على الجانب الشمالى.

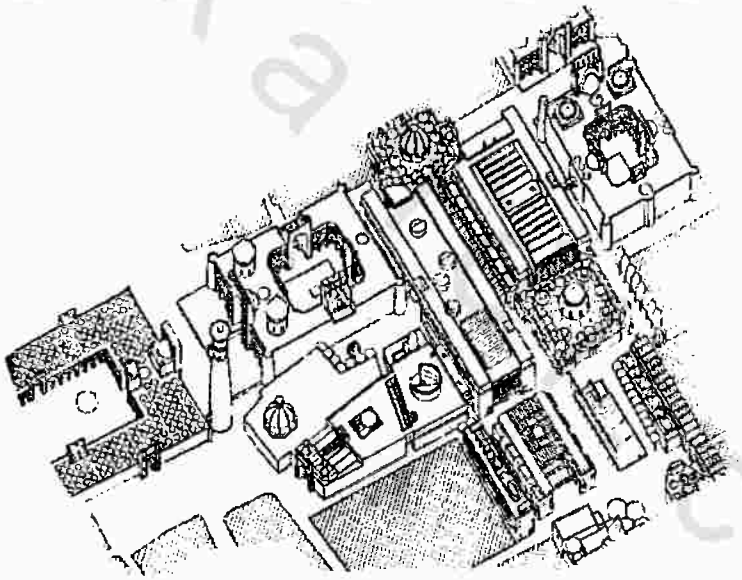

دراسة تجديد مركز بخارى التاريخى.
عن المهندس المعمارى كارل هاينز – ألمانيا.
شكل رقم (٣١) المنطقة التاريخية فى بخارى.

(١) فاسيلى بارتولد، تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ترجمة صلاح الدين هاشم، ص ١٩٣، الكويت ١٩٨١م.

ومن هذه المنطقة تتشعب أسواق بخارى ومنها تاكى زارجارون أو سوق الصياغ أى صناع المجوهرات وسوق تاكى تلباك أى سوق باعة الطواقى، وسوق سارافون الذى يتمركز فيه تجار العملات، وبنيت كل هذه الأسواق فى القرن ٩هـ / ١٥م وهى تمتد من لأبى خاوز إلى زجستان الساحة الرئيسية بالمدينة[١].

ويطلق على مبنى السوق ببخارى طاق، وقد يكون هذا الاسم مشتقا من عقود الأسواق حيث يرتكز معمار هذه الأسواق على العقود المتتالية التى تشكل طاقات تتقاطع مع بعضها لتحمل فوقها قبابا صغيرة. ويتوسط هذه الأسواق غالبا قبة مركزية كبيرة. فسوق الصاغة عبارة عن قبة رئيسية ذات ضلوع مقامة على قاعدة من ثمانية أضلاع يوجد بها ١٦ نافذة وحولها قباب أخرى ذات ارتفاعات متنوعة، والسوق مربع الشكل، وهو يقع عند تقاطع شارعين رئيسيين ويبلغ عدد مداخل هذا السوق أربعة ذات بوابات متأثرة بالعمارة الفارسية، وقد راعى المعمار ارتفاع حرارة الجو فى هذه البلاد، فالسوق من الداخل يوفر درجة حرارة مناسبة وتعطى جوا منعشا لزائرية ويضم هذا السوق ٣٠ ورشة ومحلا للمجوهرات. وسوق الطواقى أو أغطية الرءوس والتى تعتبر من أهم مميزات أزياء المسلمين فى تلك العصور، يقع له خطة ذات ست أضلاع حيث إنه يقع عند تقاطع خمسة شوارع تلتقى عند زوايا متعددة. ولقد وضع المعمار ذلك فى حسبانه عند تخطيط هذا السوق[٢].

وأصغر هذه الأسواق جميعا – من حيث الحجم لا المعمار – هو سوق تاكى صرافان أى سوق التبادل النقدى وهو عبارة عن زوجين من الأضلاع الضخمة المتقاطعة مع بعضها، وأروع ما فى هذا السوق عقوده المدببة، وارتكاز قبته الرئيسية على رقبة ذات نوافذ رائعة.

والشكل التعبيرى للمبنى يوحى لمن يشاهده بإعجاز هندسى حيث بساطة الزخارف ومتانة البناء[٣].

– ونرى أنه قد توافر فى «أسواق بخارى» القواعد التى قررها فقهاء المسلمين فى باب الحسبة على الأسواق وأبرزها قاعدتى التخصص، حيث خصص لأصحاب كل حرفة سوقا خاصا بها، «والتجاور» وهو قاعدة تقوم على التجاور فى السلع المتشابهة، أو السلع التى يكمل بعضها بعضا، وقام هذا المفهوم على المجانسة، فى السلع[٤].

---

(١) Papadopoulo, Islam and muslim art P. 527. Pairis, 1976.

(٢) Op, cit, P527.

(٣) أمجد بوهميل بورخازكا، بخارى، ص ٢٢ إصدار منظمة العواصم والمدن الإسلامية ١٩٩٣م

(٤) خالد عزب، دور الفقه الإسلامى فى العمارة المدنية فى مدينتى القاهرة ورشيد فى العصرين المملوكى والعثمانى، ص ٥٨، ٥٩، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٩٥م.

– تعد مدينة بخارى متحفا كبيرا للتراث المعمارى الإسلامى، حيث تبقى بها إلى الآن ١٤٠ أثرا معماريا من أندرها خزان المياه[١] وأشهر المبانى المعمارية الباقية ببخارى والتى تعكس تطورًا معماريا تم على أيدى المسلمين.

ضريح السامانيين: الذى شيد فى الفترة بين عامى ٨٩٢ و ٩٠٧م على يد إسماعيل السامانى، والضريح تعلوه قبة ترتكز على رقبة تبدأ بثمانية أضلاع وتنتهى بستة عشر ضلعا فى أركانها أربع قباب صغيرة، والشىء المميز لهذه المنشأة هو الاستعمال الرائع لقوالب الطوب كعنصر بنائى وزخرفى فاستخدام الطوب بهذه الخاصية يضفى نوعا من الرقة غير التقليدية على جدران سمكها يصل إلى ١.٨٠م. وهذه الظاهرة بلغت قمة نضجها فى العمارة الإسلامية فى عمارة مدينتى فوة ورشيد بمصر فى العصر العثمانى حيث استخدم الطوب بأشكال زخرفية رائعة، فضلا عن وظيفته الإنشائية[٢] وقد رمم ضريح السامانيين فى عام ١٩٣٤م، وأقيم حوله منتزه عام[٣]. ومن المعروف أن القباب الضريحية من المنشآت التى حرمها الشرع الشريف.

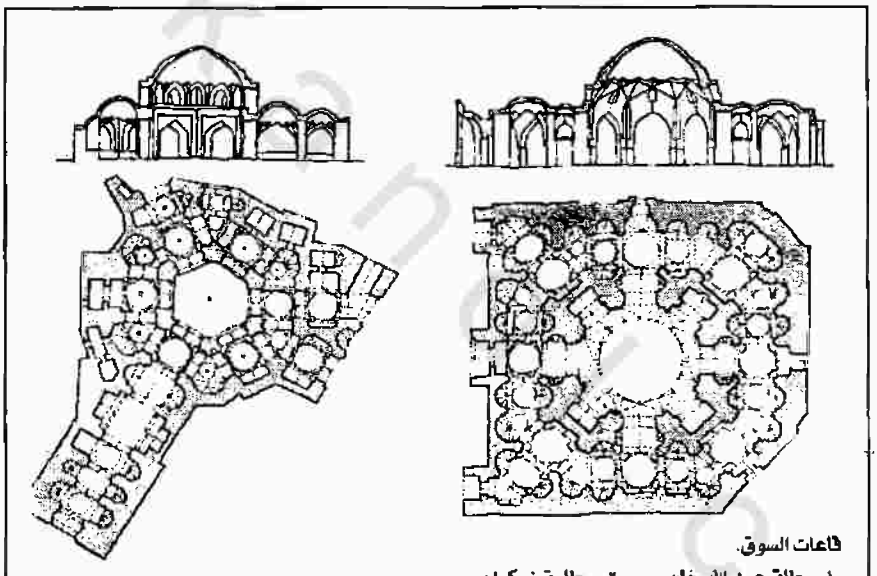

قاعات السوق.

١ – طاق عبد الله خان. ٢ – طاق زركران.

٣ – طاق تيليك فروشان. ٤ – طاق صرافان (أى الصيارفة).

شكل رقم (٣٢): العمارة فى بخارى.

(١) نعمة الله إبراهيموف، الآثار الإسلامية فى أوزبكستان، ص ١١، ١٢ طشقند، ١٩٩٢م.

(٢) خالد عزب، فوة مدينة المساجد، ص ٢٢، ٢٣، ٢٤، مؤسسة الأهرام، القاهرة. ١٩٨٩م.

(٣) Leg graber, Islamic Archie Teutare and its decoration P. 49. London. 1964.

– لقد ظلت بخارى عاصمة فى عهد القراخانيين، وساعد وقوعها على طريق القوافل الدولى على رفاهيتها اقتصاديا، وانعكس ذلك على مستواها المعمارى. ومازالت البوابة الجنوبية الرائعة لأحد مساجد القرن ٦هـ / ١٢م باقية إلى اليوم ويقوم فى مكان هذا المسجد الآن مسجد مجاك عطارى، وقد جمعت بوابة هذا المسجد كافة الفنون الزخرفية فى بخارى من الأوضاع المختلفة للطوب الصغير والتى تعطى تشكيلات رائعة للواجهة، إلى الفخار ذى النقوش الزخرفية، وإلى الحفر على المرمر بزخارف نباتية وهندسية وكتابية[1].

*** مسجد نمازكاه:**

كانت لمسجد نمازكاه ٦هـ / ١٢م ببخارى فى بادئ الأمر مساحة كبيرة فسيحة ومغروسة بالأشجار فى ضاحية المدينة شأنه شأن جميع مساجد هذا الطراز المخصصة لأداء فريضة الصلاة فى عيدى الفطر والأضحى اللذين يتوافد فيهما أناس كثيرون إلى الصلاة، وكان المصلون يصلون فى ظل الأشجار، وهذا النوع من المساجد عرفته كل مدن العالم الإسلامى وكان يعرف بمصلى العيد، تأسيا بسنة رسول الله ﷺ الذى خصص مساحة خارج المدينة المنورة لصلاة العيدين، وفى القرن ٦هـ / ١٢م لم يوجد من مسجد نمازكاه سوى حائط واحد وهو الحائط الغربى من المسجد الحالى مع المحراب. وهذا الحائط مزخرف بطوب صغير من اللبن الضارب إلى الحمرة والصفرة، وزخرف برسوم هندسية وبكتابات، وهذا النوع من الزخرفة يتصف به ذلك العهد، والكتابة التى تحيط بالمحراب تكرر مرات كثيرة هاتين الكلمتين (الملك لله) أما الكلمات الزخرفية فى تجويف المحراب فتتضمن أسماء النبى والخلفاء الراشدين.

*** مئذنة كلان:**

تبقى ببخارى من آثار القرن ١٢م مئذنة كلان التى أقامها أرسلان خان سنة ١١٢٧م. وزينت هذه المئذنة من أسفلها حتى أعلاها بالطوب المزخرف بمهارة عالية. ويبلغ ارتفاعها ٤٦.٥م. وفى داخل المئذنة يؤدى سلم من ١٠٤ درجة إلى الطرف المستدق أعلاها، الذى يشكل فى نهايته ١٦ عقدا، أعلاها صفوف من المقرنصات التى تبرز ككورنيش يحلى نهاية المئذنة وكذلك أسفلها صف من المقرنصات ينبئ عن بدء دورة المؤذن، والذى ينادى من خلال العقود الستة عشر أهالى المدينة إلى الصلاة[2].

---

(١) عصمت عبد الله، الآثار الإسلامية التاريخية فى الجزء الآسيوى من الاتحاد السوفيتى، جامعة طشقند.

(٢) خالد عزب، بخارى الشريفة تاريخها وتراثها الحضارى، ص ٦٢، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٦م.

أثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح على اقتصاديات بلاد ما وراء النهر فقد قلص نطاق تجارة القوافل بين الشرق والغرب، ووحد فى تلك الفترة الخان الأوزبكى الشيبانى بلاد ما وراء النهر فى دولة واحدة. ولم تبلغ أعمال البناء فى عهد الشيبانيين مهما كانت نشيطة مقاييس أعمال البناء فى القرنيين الرابع عشر والخامس عشر، ومن أكبر المنجزات التى أحرزها فن المعمار فى القرن ١٦م هو تطويره بناء القباب بأشكال تصميمية جديدة مما أدى إلى إيجاد أساليب جديدة فى تزينها، واستعملت بلاطات القاشانى المربعة على نطاق واسع فى زخرفة الجدران الداخلية والخارجية للمنشآت، ويعتبر مسجد كلان ببخارى والذى أعيد بناؤه ما عدا المئذنة عام ١٥١٤م طفرة معمارية بمقاييس ذلك العصر. وكان هذا المسجد يقوم بوظيفة المسجد الجامع ببخارى حيث لا تقام صلاة الجمعة إلا به، والمسجد ملحق به باحة واسعة محاطة بأروقة ذات قبب ترتكز على أعمدة حجرية وكان المصلون يستظلون فى الأروقة. والمسجد من الداخل مسقوف بـ ٢٨٨ قبة. ويتسع هذا المسجد لـ ١٠,٠٠٠ مصل، وإذا أردنا أن نأخذ صورة لمدينة بخارى فلابد أن يبرز فيها المسجد بقبته الرئيسية الزرقاء والتى ترتفع فوق المسجد لتشكل مع المئذنة منظرًا رائعا قلما نشاهده فى مكان آخر. وتشكل مجموعة بوى كلان (قدم العظيم) مع مدرسة ميرعرب التى تقابلها مجمعا للعمارة الإسلامية فى بلاد ما وراء النهر، هذه المدرسة التى شيدها الشيخ عبد الله اليمنى فى سنتى ١٥٣٥ - ١٥٣٦م الملقب بميرعرب. وكانت هذه المدرسة تضم أكثر من مائة حجرة.

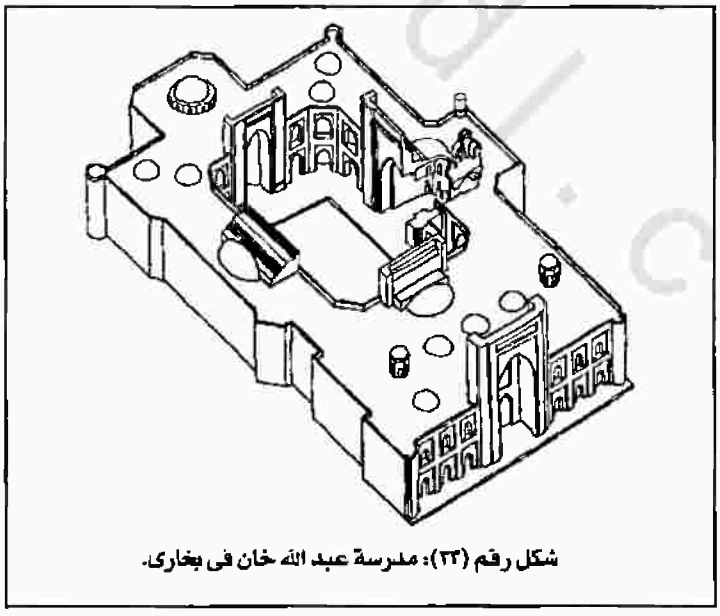

شكل رقم (٣٣): مدرسة عبد الله خان فى بخارى.

لقد شاع فى بخارى فى عهد الشيبانيين إنشاء منشآت معمارية متقابلة على غرار ما وجدناه فى ميرعرب وكلان، ويماثل هاتين المنشأتين مجموعة قوش ومعناها المدرستان وهما من إنشاء عبد الله خان وتحمل إحداهما اسم أمه وهى مدرسة مادرخان (١٥٦٦ - ١٥٦٧) وتحمل الأخرى اسمه مدرسة عبد الله خان. وتمتاز مدرسة عبد الله خان عن مدرسة مادرخان المتواضعة الواقعة على جانب الشارع الآخر بالتخطيط الأكثر تعقيدا والسقوف القبية[1].

كانت مساجد الأحياء تجمع أحيانا بين طرائق فن البناء الضخم وبين تقاليد فن البناء الشعبى الأمر الذى ساعد على بلوغ مزايا جمالية جديدة. ومن منشآت القرن السادس عشر يمتاز مسجد بلند فللمسجد رواق خارجى به أعمدة خشبية تحمل سقفا خشبيا، وزين المسجد بالقاشانى الأخضر ذى زخارف الزهور الرائعة والتى تتكامل زخرفيا مع الكتابات الموجودة بالمسجد، ومحراب المسجد زين ببلاطات القاشانى أيضا، أما السقف فهو من الخشب المحفور والمرصع بالزخارف الذهبية. ويماثل مسجد بلند مسجد خواجة زين الدين وكلاهما لا تقل قيمته

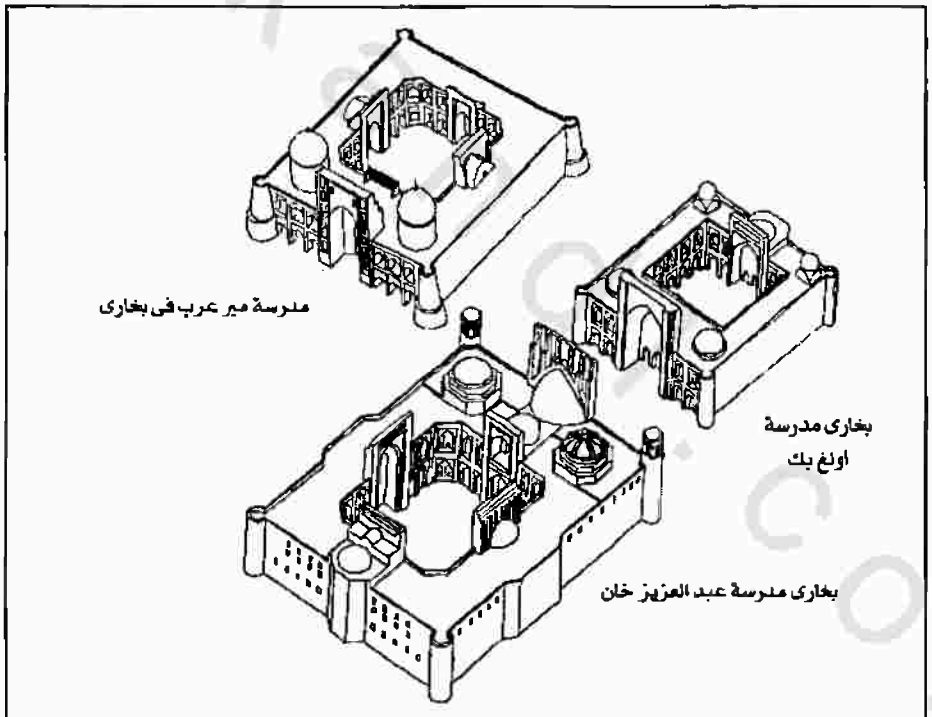

شكل رقم (٢٤): العمارة فى بخارى.

(١) عصمت عبد الله، مرجع سابق.

عن أروع منشآت القرن الخامس عشر بسمرقند. وتعتبر مدرسة كوكلداش (١٥٦٦ - ١٥٦٩م) أكبر مدارس بخارى حيث يوجد بها ١٣٠ خلوة لإقامة الطلبة ومساحتها ٥٩٣٤م (٦٩ × ٨٦م) ويتوسط المدرسة فناء كبير تطل عليه خلوات الطلبة المقيمين، ويوجد بالطابق الأرضى إلى جانب ذلك قاعة التدريس والمسجد، ويوجد فى الطابق العلوى الحمامات وهى وحدة معمارية هامة تتطلبها ما تفرضه العبادات الإسلامية من طهارة ونظافة دائمة، وأسقف هذه الحمامات من الزجاج الملون والمعشق فى الجص والذى يعطى أضواءً باهرة فى داخل الحمام. ومُشَيِّد هذه المدرسة هو وزير عبد الله خان الثانى. والمبنى يحمل اسم مشيدة[1].

وفى سنة ١٦٢٠م حفر حوض ماء لب، بأمر أحد كبار مسئولى بخارى وهو نادر ديوان بيكى. وكان الحوض يكسوه الحجر الجيرى، وغرست حوله الأشجار ليشكل مع مسجد نادر ديوان بيكى مجموعة لب حوض. وتمثل الكتابات الموجودة أعلى مدخل مدرسة أولوغ بك ببخارى وهى «طلب العلم فريضة على كل مسلم»وظيفة تلك المدرسة، التى صممت لتلائم هذه الوظيفة فالخلاوى التى يقيم بها الطلبة على طابقين وفضلا عن ذلك خصص لهم مطبخ وصالة طعام وقاعة درس شتوية. وفى مواجهة مدخل المنشأة بعد الفناء يوجد الإيوان الرئيسى الذى ضوعف ارتفاعه عن كافة إيوانات المدرسة وعن الأجزاء المجاورة له. وفى الجهة المقابلة من الشارع توجد مدرسة عبد العزيز خان التى شيدت فى فترة لاحقة بعد مدرسة أولوغ بك. وفى هذه المدرسة استخدمت العقود البلورية بنجاح منقطع النظير، وهذه النوع من العقود معروف فقط فى شرق العالم الإسلامى. وهذه العقود أمكن المحافظة عليها فى إيوان الصحن الرئيسى للمسجد الصيفى كذلك فى مدخل المسجد الشتوى ونستطيع أن نتوقف قليلا عند تأثير البيئة على مساجد بلاد ما وراء النهر التى كانت تنقسم إلى قسمين أحدهما صيفى مفتوح والآخر شتوى مغلق، وهذا يرجع إلى برودة الشتاء القاسية وحرارة الصيف القائظة.

وقد انتشرت ببخارى الكتاتيب لتعليم البنين القراءة والكتابة ولتأهيلهم بعد ذلك ليلتحقوا بالمدارس.

*** قلعة أرك:**

من المنشآت المعمارية التى مازالت أجزاء منها باقية ببخارى قلعة أرك وهذه القلعة تسيطر على بخارى لموقعها على هضبة مرتفعة بالمدينة، وللقلعة بوابتان إحداهما تطل على الساحة الرئيسية للمدنية، وكان خان بخارى يرقب ما يجرى بالمدينة من خلال الرواق العلوى لهذه

(١) أمجد بورخازكا، مرجع سابق، ص ٣٥.

البوابة. وتضم القلعة فى داخليا مساكن للعاملين بها وكذلك مستودع للأسلحة وورش وسكن الوزير والمسجد الجامع وسجن لأصحاب الرتب العالية. ومعظم مبانى القلعة اختفت الآن ولم يتبق منها سوى أجزاء. ومن أهم أجزاء القلعة الباقية ساحة الاستقبال وتضم كرسى العرش بأعمدته وظلته التى تحملها تلك الأعمدة. ويرتفع كرسى العرش عن الساحة حيث يصعد إليه بخمس درجات.

وبالإضافة إلى قلعة أرك اتخذ حكام بخارى فى القرن ١٩م قصرا صيفيا خارج المدينة لإقامتهم. وهذا القصر الصيفى عبارة عن قصرين، الأول وهو القصر القديم وهو الآن عبارة عن بقايا لقصر متهدم. أما القصر الجديد فيتكون من عدة أجزاء يظهر فيها مختلف الفنون والأنماط المعمارية المتنوعة، وهذا القصر الجديد أصبح مزارا سياحيا، وبصفة خاصة قاعات الاستقبال به. ويعتبر هذا القصر آخر مثال حى للعمارة الإسلامية ببخارى، حيث بدأت تظهر فى عمارته وزخارفه الأساليب الأوروبية[1].

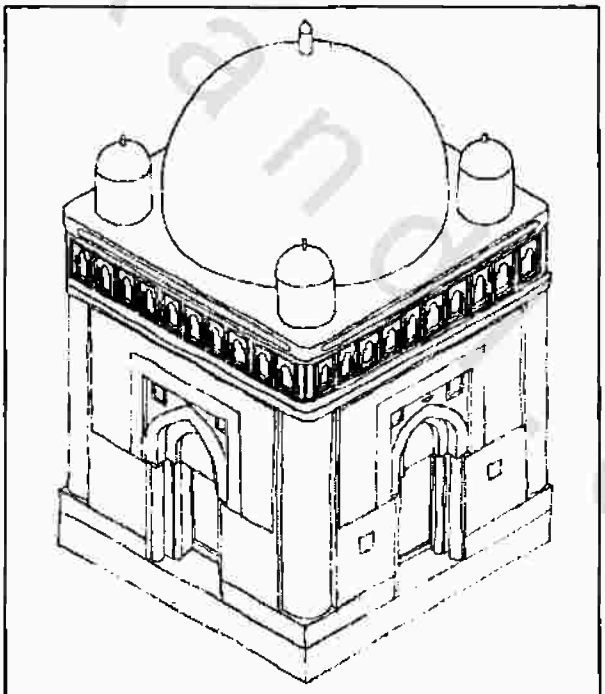

شكل رقم (٢٥): ضريح السامانيين (العمارة فى بخارى).

(١) المرجع السابق، ص ٧٩.

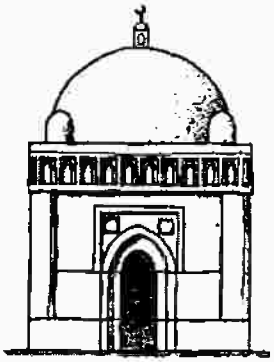

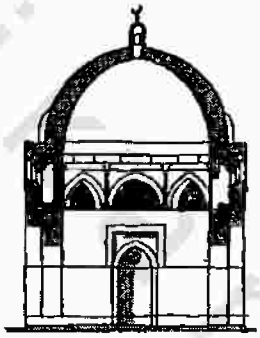

من أعلى:
واجهة المدخل.
قطاع.
مسقط أفقى لمنطقة تحويل القبة.
مسقط أفقى للدور الأرضى.

شكل رقم (٣٦) : ضريح السامانيين فى بخارى.

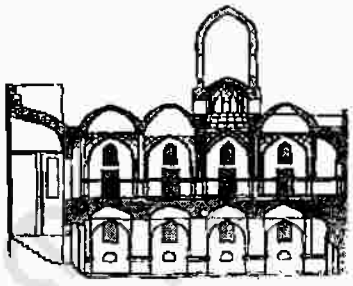

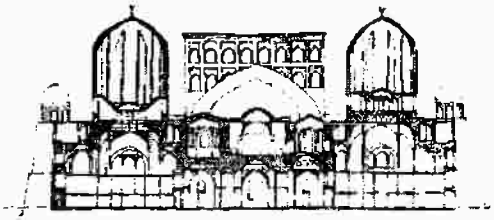

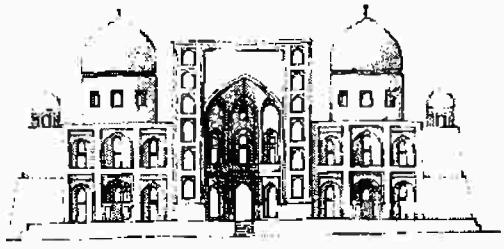

شكل رقم (٢٧): مسجد مير عرب.

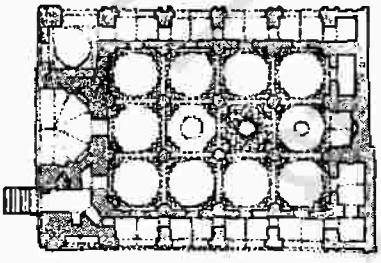

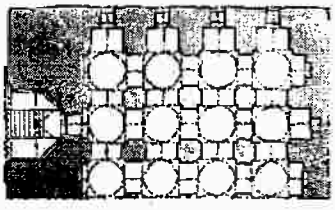

شكل رقم (٢٨): مسجد ماجاكى كوربا
بنى هذا المسجد عام ١٦٢٧ ويعتبر أثرًا غير عادى من عدة وجوه. ويتألف من طابقين مثل مسجد الصالح طلائع فى القارة ويرجع الفرق بينهما إلى كونه مسجدا خانقاه فى نفس الوقت.

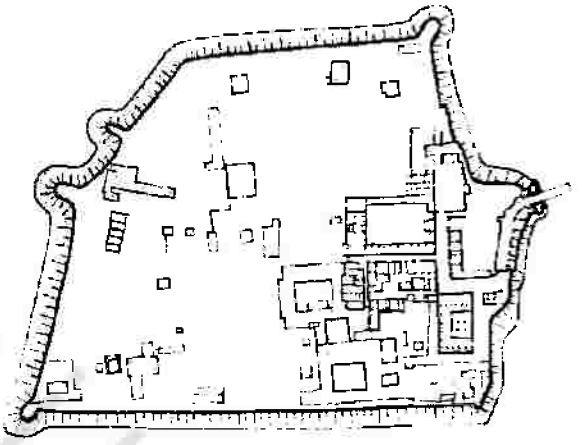

شكل رقم (٣٩): قلعة بخارى.

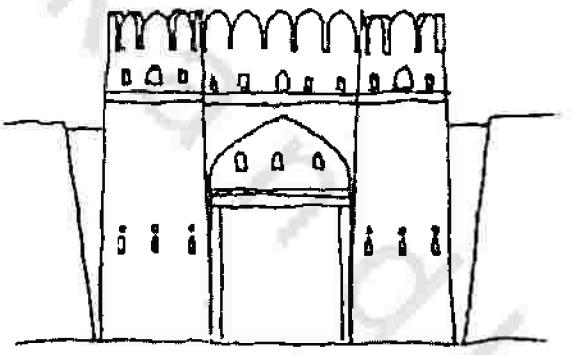

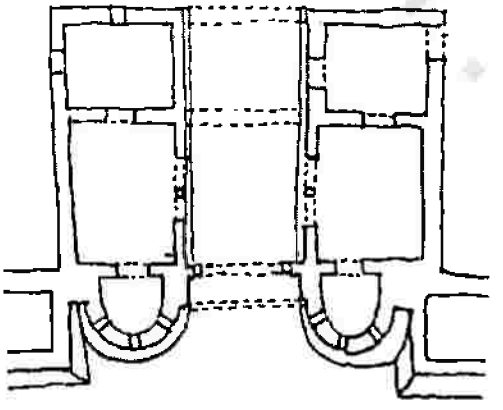

شكل رقم (٤٠): نموذج من أبواب مدينة بخارى.

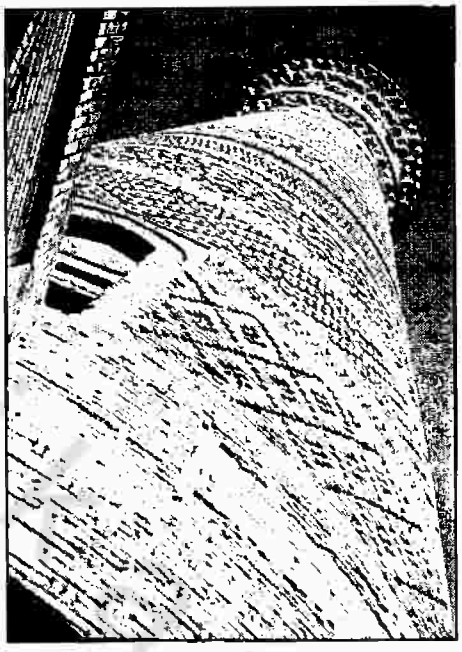

صورة رقم (٦٧): مئذنة كلان فى بخارى.

صورة رقم (٦٨): مسجد ماجاكى عطارى (بخارى).

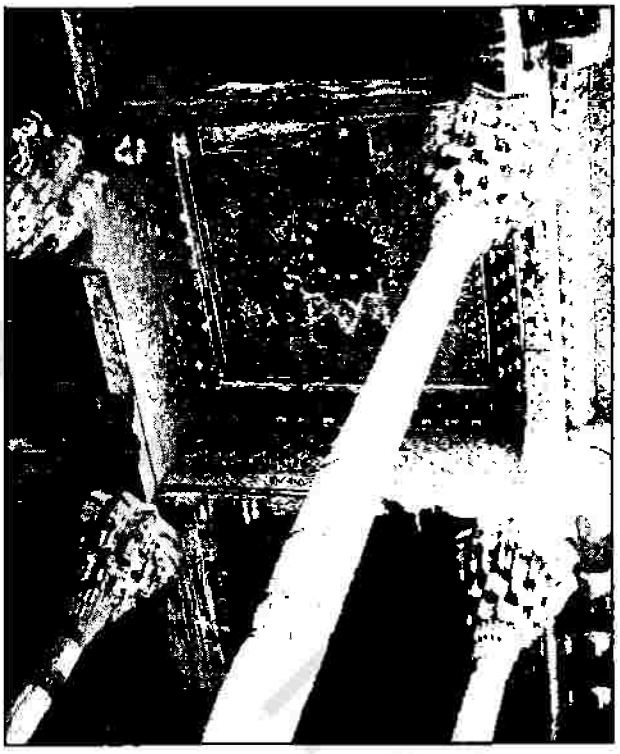

صورة رقم (٦٩) : مدخل مسجد قلعة بخارى بسقفه الرائع.

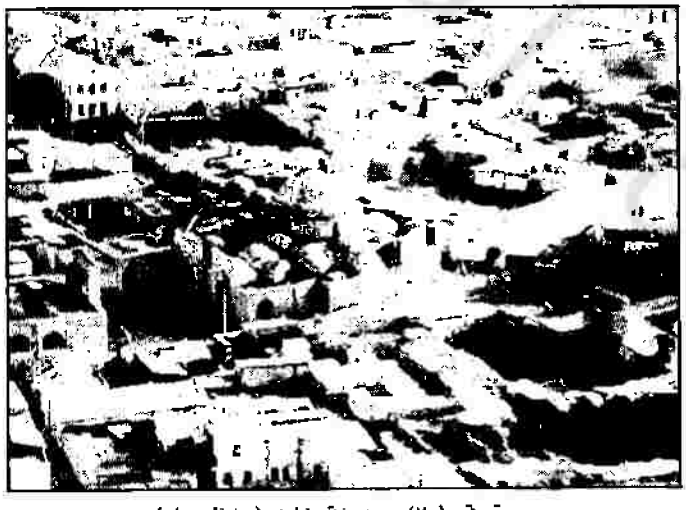

صورة رقم (٧٠) : مدينة بخارى (منظر عام).

صورة رقم (٧١) : أحد أبواب سور بخارى.

صورة رقم (٧٢) : محطة قطار فى الحى الروسى ببخارى.

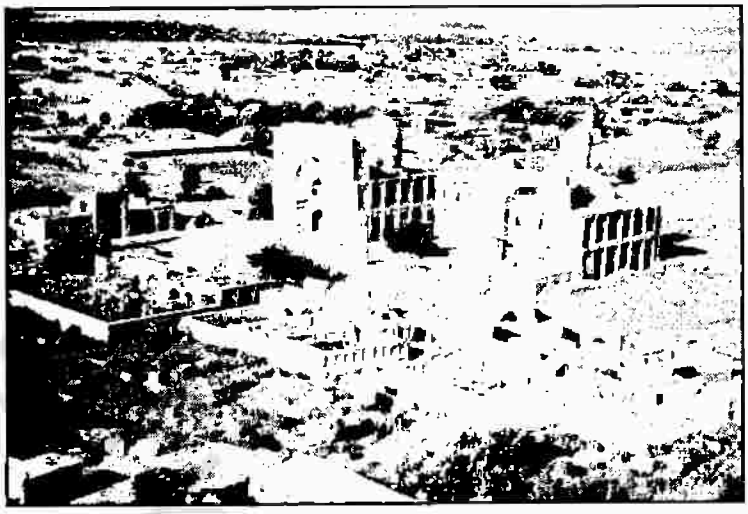

صورة رقم (٧٣) : منظر عام لخور بكر فى بخارى.

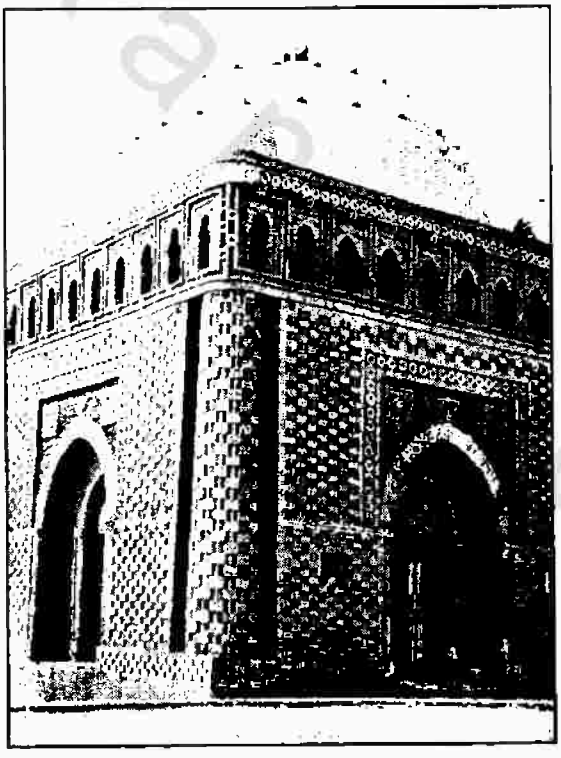

صورة رقم (٧٤): ضريح السامانيين فى بخارى.